غزلان الغابة

كامل كيلاني



غِزْلانُ الغَابَةِ

غِزْلانُ الغَابَةِ

تأليف
كامل كيلاني

هنـــداوي

غِزْلانُ الغَابَةِ

كامل كيلاني

رقم إيداع ٢٠١٢ / ١٩٣٢٨
تدمك: ٣ ١١٧ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٦ / ٨ / ٢٠١٢

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ + **فاكس:** ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

رسم الغلاف: حنان بغدادي.

المحتويات

الفصل الأول

(١) «حَبُّ الرُّمَّانِ»

عاشَ فِي قَديمِ الزَّمانِ، مَلِكٌ عَظِيمُ الشَّأنِ، اسْمُهُ «حَبُ الرُّمَّانِ». وَكانَ الْأَخْيارُ يُحِبُّونَهُ وَيحْتَرِمُونَهُ لِعَدْلِهِ وَطِيبَتِهِ، وَالْأَشْرارُ يَخافُونَهُ ويَرْهَبُونَهُ لِحَزْمِهِ وَقُوَّتِهِ. وَكانَتْ زَوْجُهُ الْمَلِكَةُ «لُؤْلُؤَةُ» مِثْلَهُ بَراعَةً وَعَقْلًا، وَطِيبَةً وَعَدْلًا، وَسَماحَةً وَفَضْلًا.

(٢) «الشَّقْراءُ»

وَقَدْ رَزَقَهُما اللهُ — سُبْحانَهُ — أَمِيرَةً صَغِيرَةً، أُشْرِبَ بَياضُ وَجْهِها بِحُمْرَةٍ صافِيَةٍ؛ فَأَطْلَقا عَلَيْها لَقَبَ «الْأَمِيرَةِ الشَّقْراءِ».

وَكانَ شَعْرُها الْبَدِيعُ الْأَصْفَرُ مَضْرِبَ الْمَثَلِ فِي الْجَمالِ، وَقَلْبُها الطَّاهِرُ مَضْرِبَ الْمَثَلِ فِي الطِّيبَةِ والسَّماحَةِ. وَكانَتْ — إِلَى ذَلِكَ — آيَةً فِي حُسْنِ الْمُحاضَرَةِ، وَبَدِيعِ الْمُسامَرَةِ، وَلُطْفِ الْمُعاشَرَةِ.

وَكانَ مِنْ سُوءِ الْحَظِّ أَنْ قَضَتِ الْمَلِكَةُ «لُؤْلُؤَةُ» نَحْبَها — بَعْدَ أَشْهُرٍ قَلِيلَةٍ مِنْ مِيلادِ «الشَّقْراءِ» — وَخَلَّفَتْها يَتِيمَةً. فَجَزِعَ الْمَلِكُ «حَبُّ الرُّمَّانِ» لِفَقْدِها، وَطالَ حُزْنُهُ وَبُكاؤُهُ عَلَيْها.

وَلَمْ تَشْعُرِ «الشَّقْراءُ» بِفَقْدِ أُمِّها حِينَئِذٍ، وَلَمْ تَدْرِ بِالْخَسارَةِ الْفادِحَةِ الَّتِي مُنِيَتْ بِها. وَلَها الْعُذْرُ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّ طِفْلَةً فِي مِثْلِ سِنِّها لا يُمْكِنُ أَنْ تَشْعُرَ بِما حَوْلَها. فَلا عَجَبَ إذا قَضَتْ أَيَّامَها ضاحِكَةً مُسْتَبْشِرَةً، وَلَمْ يَشْغَلْها ذَلِكَ الرُّزْءُ الْفادِحُ عَنِ الرَّضاعَةِ الْهَنِيَّةِ، والنَّوْمِ الْهادِئِ الْمُطْمَئِنِّ.

وَكانَ «حَبُّ الرُّمَّانِ» يُحِبُّ طِفْلَتَهُ الْحُبَّ كُلَّهُ، كَما كانَتِ الطِّفْلَةُ مَشْغُوفَةً بِأَبِيها شَغَفًا لا نَظِيرَ لَهُ.

وَكانَ الْمَلِكُ يُهْدِي إِلَيْها أَجْمَلَ اللُّعَبِ، وَأَفْخَمَ الْمَلابِسِ، وَأَطْيَبَ الْفاكِهَةِ. وَكانَتِ السَّعادَةُ تَغْمُرُها، وَأَسْبابُ الْهَناءَةِ تَحُوطُها مِنْ كُلِّ جانِبٍ.

(٣) «سُمَيَّةُ»

وَلَمْ تَمْضِ سَنَتانِ حَتَّى اجْتَمَعَ رَأْيُ الشَّعْبِ عَلَى تَزْوِيجِ الْمَلِكِ، رَجاءَ أَنْ يَكُونَ لَهُ غُلامٌ يَخْلُفُهُ فِي مُلْكِهِ.

فَحَزِنَ الْمَلِكُ لِهَذا الْقَرارِ، وَقابَلَ هَذا الإِجْماعَ — أَوَّلَ الْأَمْرِ — بِالرَّفْضِ، وَفاءً لِزَوْجِهِ الرَّاحِلَةِ، وَبِرًّا بِابْنَتِها «الشَّقْراءِ».

ثُمَّ انْتَهَى إِلَى الْقَبُولِ والإِذْعانِ نُزُولًا عَلَى إرادَةِ شَعْبِهِ، وَتَحْقِيقًا لِرَغْبَتِهِ؛ فَقالَ لِوَزِيرِهِ «عِمادٍ»: «لَقَدِ اجْتَمَعَ رَأْيُ الشَّعْبِ — أَيُّها الصَّدِيقُ الْعَزِيزُ — عَلَى أَنْ أَتَزَوَّجَ. وَقَدْ تَرَكْتُ لَكَ أَنْ تَخْتارَ مَنْ تَأْنَسُ فِيها الطِّيبَةَ وَكَرَمَ النَّفْسِ مِنَ الْأَمِيراتِ. فَلَيْسَ يَعْنِينِي — مِنَ الزَّوْجِ الْجَدِيدَةِ — إِلَّا أَنْ أَثِقَ بِأَنَّها لَنْ تُسِيءَ إِلَى «الشَّقْراءِ».»

فَقالَ لَهُ الْوَزِيرُ «عِمادٌ»: «السَّمْعُ والطَّاعَةُ لَكَ.»

وَسافَرَ — عَلَى الْفَوْرِ — يَجُوبُ الْبِلادَ، وَرَأَى كَثِيرًا مِنَ الْأَمِيراتِ، ثُمَّ انْتَهَى بِهِ الْمَطافُ — آخِرَ الْأَمْرِ — إِلَى الْمَلِكِ «نَوْفَلٍ» وَكانَتْ لَهُ ابْنَةٌ جَمِيلَةٌ ذَكِيَّةٌ لَطِيفَةٌ اسْمُها «سُمَيَّةُ». وَهِيَ — فِيما يَبْدُو مِنْ مَظْهَرِها — طَيِّبَةُ الْأَخْلاقِ، أَمَّا وَجْهُها فَهُوَ آيَةٌ فِي الْجَمالِ. فَأَسْرَعَ الْوَزِيرُ إِلَى أَبِيها يَسْأَلُهُ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ فِي تَزْوِيجِ ابْنَتِهِ بِمَلِيكِهِ «حبِّ الرُّمَّانِ».

وَهَكَذا انْخَدَعَ بِها الْوَزِيرُ مأْخُوذًا بِمَظْهَرِها، دُونَ أَنْ يُعْنِّي نَفْسَهُ أَوْ يُتْعِبَها بِالتَّثَبُّتِ مِنْ أَخْلاقِها، وَتَعَرُّفِ حَقِيقَةِ أَمْرِها، ناسِيًا قَوْلَ الْقائِلِ الْحَكِيمِ:

وَلا تَحْكُمْ بِأَوَّلِ ما تَراهُ　　فَأَوَّلُ طالِعٍ فَجْرٌ كَذُوبُ!

وَكانَتِ الْفَتاةُ — عَلَى جَمالِ مَظْهَرِها — غايَةً فِي الشَّراسَةِ والْغَيْرَةِ وَسُوءِ الْخُلُقِ؛ فَلَمْ يَتَرَدَّدِ الْمَلِكُ «نَوْفَلٌ» فِي إِجَابَةِ طَلَبِ الْوَزِيرِ، وَهُوَ فَرْحانُ بِالتَّخَلُّصِ مِنِ ابْنَتِهِ الْحَمْقاءِ.

وَسُرْعانَ ما أَمَرَها الْمَلِكُ «نَوْفَلٌ» بِالذَّهابِ مَعَ الْوَزِيرِ «عِمادٍ» مُزَوَّدَةٌ بِنَفائِسَ مِنَ الْأَمْتِعَةِ، وَغَوالٍ مِنَ الْحُلِيِّ، حُمِلَتْ عَلَى أَرْبَعَةِ آلافِ بَغْلٍ.

وَما نَظَرَ الْمَلِكُ إِلَى زَوْجِهِ الْجَدِيدَةِ حَتَّى رَأَى فِي وَجْهِها جَمالًا فاتِنًا. وَلٰـكِنَّهُ لَمْ يَرَ عَلَى سِيماها شَيْئًا مِنَ الْمَظاهِرِ السَّامِيَةِ النَّبِيلَةِ الَّتِي كانَتْ تَلُوحُ عَلَى مُحَيَّا زَوْجِهِ الْمُتَوَفَّاةِ.

وَلَمْ يَقَعْ بَصَرُها عَلَى الْأَمِيرَةِ «الشَّقْراءِ» حَتَّى نَظَرَتْ إِلَيْها نَظْرَةً شَزْراءَ، مَمْلُوءَةً بِشَراسَةٍ وَحِقْدٍ، فَلَمْ تَتَمالَكِ الطِّفْلَةُ الْمِسْكِينَةُ — الَّتِي لَمْ تَتَجاوَزِ الثَّالِثَةَ مِنْ عُمْرِها — أَنْ تَفَزَّعَتْ مِنْ هٰذِهِ النَّظْرَةِ الْمُنْكَرَةِ. واشْتَدَّ الْخَوْفُ بِها فَبَكَتْ. وَسَأَلَها الْمَلِكُ عَمَّا يَحْزُنُها وَيُبْكِيها، فَقالَتْ، وَهِيَ تَخْتَبِئُ بَيْنَ ذِراعَيْهِ: «أَبِي ... أَبِي الْعَزِيزَ، بِرَبِّكَ لا تَتْرُكْنِي لِهٰذِهِ الْأَمِيرَةِ؛ فإِنِّي أَخافُها. وَإِنَّ نَظْرَتَها لَتُفَزِّعُنِي.»

فَدَهِشَ الْمَلِكُ مِمَّا سَمِعَ، وَنَظَرَ إِلَى «سُمَيَّةَ»؛ فَأَسْرَعَتْ إِلَى كِتْمانِ غَيْظِها، وَكَبْتِ عَواطِفِها، وتَغْيِيرِ قَسِماتِ وَجْهِها، وَتَصَنَّعَتِ الْهُدُوءَ، وَتَكَلَّفَتْ الِابْتِسامَ.



وَلَكِنَّ الْمَلِكَ فَطَنَ — بِرَغْمِ ذَلِكَ — إِلَى حَقِيقَتِها؛ فَأَمَرَ بِإِبْعادِ «الشَّقْراءِ» عَنْ «سُمَيَّةَ» حَتَّى تَسْلَمَ مِنْ أَذاها. وَأَشارَ بِأَنْ تَعِيشَ «الشَّقْراءُ» فِي كَفالةِ مُرْضِعَتِها «أَنِيسَةَ» وَمُرَبِّيَتِها «حَزامٍ»؛ فَكَانَتْ كِلْتاهُما تَتَعَهَّدُ الطِّفْلَةَ بِالرِّعايَةِ، وَتَحُوطُها بِالْحَنانِ والْعَطْفِ. وَلِذَلِكَ كانَتْ الْمَلِكَةُ «سُمَيَّةُ» لا تَرَى «الشَّقْراءَ» إِلَّا نادِرًا. وَكانَتْ — إِذا لَقِيَتْها مُصادَفَةً — لا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُخْفِيَ ما تُبْطِنُهُ لَها مِنْ كَراهِيَةٍ وَحِقْدٍ.

(٤) الْأُخْتانِ

وَبَعْدَ سَنَةٍ، رُزِقَتِ الْمَلِكَةُ «سُمَيَّةُ» ابْنَةً سَمَّوْها «السَّمْراءَ». وَكانَتِ «السَّمْراءُ» عَلَى قِسْطٍ كَبِيرٍ مِنَ الْجَمالِ، يَزِينُها شَعْرٌ فاحِمٌ «شَدِيدُ السَّوادِ»، وَإِنْ لَمْ تَبْلُغْ — فِي الْجَمالِ — مَبْلَغَ أُخْتِها «الشَّقْراءِ».

وَكانَتِ «السَّمْراءُ» مِثالًا لِلْحَماقَةِ والطَّيْشِ والانْدِفاعِ إِلَى الشَّرِّ.

وَكَأَنَّما وَرِثَتْ ذَلِكَ عَنْ أُمِّها، كَما وَرِثَتْ عَنْها كَراهِيَةَ «الشَّقْراءِ» والْإِفْراطَ فِي بُغْضِها، فَكانَتْ تَعَضُّ أُخْتَها وَتَقْرُصُها، وَتَخْمِشُها بِأَظافِرِها، وَتَشُدُّ شَعْرَها، وَتَحْطِمُ لُعَبَها، وَتُلَوِّثُ الْغالِيَ مِنْ ثِيابِها، والْجَمِيلَ مِنْ حُلَلِها.

وَلَمْ تَكُنِ «الشَّقْراءُ» الصَّغِيرَةُ تُبْدِي التَّأَفُّفَ أَوْ تُظْهِرُ الْغَضَبَ، بَلْ كانَتْ تَلْتَمِسُ الْعُذْرَ لِأُخْتِها «السَّمْراءِ» وَتَسْأَلُ أَباها أَنْ يَصْفَحَ عَنْها، وَيَغْفِرَ لَها إِساءَتَها، لِصِغَرِ سِنِّها وَبَلاهَتِها. وَلِذَلِكَ كانَتْ مَحَبَّةُ الْمَلِكِ «لِلشَّقْراءِ» تَزْدادُ؛ فَأَمَّا مَحَبَّتُهُ «لِلسَّمْراءِ» فَكانَتْ تَنْقُصُ شَيْئًا فَشَيْئًا.

وَلَمَّا رَأَتِ الْمَلِكَةُ «سُمَيَّةُ» ذَلِكَ، اشْتَدَّ حِقْدُها عَلَى الطِّفْلَةِ الْبَرِيئَةِ حِينًا بَعْدَ حِينٍ.

وَلَوْلا أَنَّ الْمَلِكَ عادِلٌ حازِمٌ، وَأَنَّ «سُمَيَّةَ» تَخْشَى غَضَبَهُ، لَصَيَّرَتِ «الشَّقْراءَ» أَتْعَسَ الْأَطْفالِ جمِيعًا.

الفصل الثاني

(١) «شَرْهانُ»

وَلَمَّا بَلَغَتِ «الشَّقْراءُ» السَّابِعَةَ مِنْ عُمْرِها، وَبَلَغَتْ أُخْتُها «السَّمْراءُ» الثَّالِثَةَ، أَحْضَرَ الْمَلِكُ لِلْأُولَى مَرْكَبَةً صَغِيرَةً جَمِيلَةً تُشَدُّ إِلَى نَعامَتَيْنِ، يَقُودُها خادِمٌ فِي الْعاشِرَةِ مِنْ عُمُرِهِ، يُدْعَى: «شَرْهانَ».



وَكانَ «شَرْهانُ» يُحِبُّ «الشَّقْراءَ» وَيُخْلِصُ لَها، كَما تُحِبُّها خالَتُهُ الَّتِي أَرْضَعَتْها، وَما زالَتْ تُخْلِصُ لَها.

وَكانَ لا يَفْتَأُ يَتَفَنَّنُ فِي مُلاعَبَتِها وَإِدْخالِ السُّرُورِ عَلَيْها — مُنْذُ وِلادَتِها — كَما كانَتْ تَرْتاحُ إِلَى لِقائِهِ، وَتَهَشُّ لَهُ فَرْحانَةً مَسْرُورَةً، كُلَّما رَأَتْهُ.

وَلَكِنْ تَجَلَّتْ فِي هَذا الْغُلامِ نَقِيصَةٌ واحِدَةٌ غَطَّتْ عَلَى سائِرِ مَزاياهُ، وَضَيَّعَتْ كُلَّ مَحاسِنِهِ. تِلْكَ: هِيَ أَنَّهُ — عَلَى طِيبَةِ قَلْبِهِ وَتَعَلُّقِهِ بِمَوْلاتِهِ الصَّغِيرَةِ — شَرِهٌ شَدِيدُ النَّهَمِ بِالْفَطائِرِ والْحَلْوَى.

وَهُوَ — لِفَرْطِ شَغَفِهِ بِها — لا يُبالِي شَيْئًا فِي سَبِيلِ الْحُصُولِ عَلَيْها.

فَلا عَجَبَ إِذا أَطْلَقُوا عَليْهِ — لِشِدَّةِ شَرَهِهِ وَنَهَمِهِ — لَقَبَ «شَرْهانَ».

وَكَثِيرًا ما قالَتْ لَهُ «الشَّقْراءُ» فِي أَسَفٍ شَدِيدٍ: «لَقَدْ كَمُلَتْ مَزاياكَ، يا «شَرْهانُ». لَوْلا تِلْكَ النَّقِيصَةُ الْفَظِيعَةُ الَّتِي شَوَّهَتْ فَضائِلَكَ، وأَزْعَجَتْ كُلَّ مَنْ يَعْرِفُكَ.»

فَيُقْبِلُ عَلَيْها «شَرْهانُ» يَتَرَضَّاها، وَيَعْتَذِرُ لَها، وَيَلْتَمِسُ الصَّفْحَ مِنْها، بَعْدَ أَنْ يَعِدَها بِالْإِقْلاعِ عَنْ هَذِهِ النَّقِيصَةِ الْمُخْزِيَةِ، ثُمَّ لا يَلْبَثُ أَنْ يَعُودَ إِلَى سَرِقَةِ الْفَطائِرِ مِنَ الْمَطْبَخِ، وانْتِهابِ الْحَلْوَى مِنَ الْعُلَبِ.

وَطالَما عُوقِبَ «شَرْهانُ» عَلَى ذَلِكَ: صَفْعًا بِالْأَكُفِّ، وَرَكْلًا بِالْأَقْدامِ، وَضَرْبًا بِالْعِصِيِّ، وجَلْدًا بِالسِّياطِ، فَلَمْ يَرْتَدِعْ عَنْ هَذِهِ النَّقِيصَةِ وَلَمْ يَتُبْ.

(٢) الْغـــابَةُ الْمَسْحُورَةُ

وَرَأَتْ «سُمَيَّةُ» أَنْ تَسْتَغِلَّ هَذِهِ النَّقِيصَةَ، فَتَسْتَخْدِمَهُ فِي الْكَيْدِ لِتِلْكَ الْفَتاةِ؛ بِنْتِ ضَرَّتِها الْمُتَوَفَّاةِ، وَهِيَ تَعْلَمُ أَنَّ الْحَدِيقَةَ الَّتِي تَتَنَزَّهُ فِيها الْأَمِيرةُ «الشَّقْراءُ» فِي مَرْكَبَةٍ صَغِيرَةٍ تَجُرُّها نَعامَتانِ، وَيَسُوقُها حُوذِيُّها «شَرْهانُ»، تَنْتَهِي إِلَى غابَةٍ بَدِيعَةٍ واسِعَةٍ فَسِيحَةِ الْأَرْجاءِ، هِيَ: «غابَةُ الزَّنْبَقِ». وَإِنَّما أُطْلِقَ عَلَيْها اسْمُ «غابَةِ الزَّنْبَقِ»، لِأَنَّها غاصَّةٌ — طُولَ الْعامِ — بِأَزْهارِهِ الْعَطِرَةِ، وَلَيْسَ يَفْصِلُها عَنِ الْحَدِيقَةِ إِلَّا سِياجٌ مِنَ الْحَشائِشِ وَالْأَعْشابِ، لا يَصْعبُ اجْتِيازُهُ عَلَى مَنْ أَرادَ.

وَكانَ النَّاسُ يَتَحامَوْنَ هَذِهِ الْغابَةَ — عَلَى قُرْبِها مِنْهمْ — لِأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّها مُشْتَبِهَةُ الطُّرُقاتِ، مَمْلُوءَةٌ بِالْمَخاوِفِ والْأَخْطارِ. وَلَمْ يَسْلَمْ أَحَدٌ مِنْ رُوَّادِها وَسالِكِيها، مِنَ التِّيهِ والضَّلالِ فِيها، مَهْما بَلَغَتْ مَهارَتُهُ، وَحِذْقُهُ وَبَراعَتُهُ.

وَكانَ «شَرْهانُ» يَعْرِفُ ذَلِكَ أَصْدَقَ الْمَعْرِفَةِ؛ لِأَنَّهُ طالَما سَمِعَ النَّاسَ يُحَذِّرُونَهُ تِلْكَ الْغابَةَ الْمَخُوفَةَ الْمَرْهُوبَةَ.

وَكانَ أَخْوَفَ ما يخافُونَهُ: أَنْ تَدْنُوَ «الشَّقْراءُ» مِنَ الْغابَةِ، فَتَغْفُلَ عَنْها عَيْنُ حُوذِيِّها «شرْهانَ» لَحْظَةً، فَتَحْتَوِيَها الْغابَةُ فِيمَنِ احْتَوَتْهُ، وَتُهْلِكَها فِيمَن أَهْلَكَتْهُ. وَلَطالَما رَغِب الْمَلِكُ فِي أَنْ يُقِيمَ عَلَى أَطْرافِ هَذِهِ الْغابَةِ سُورًا مُرْتَفِعَ الْبُنْيانِ، لِيُؤَمِّنَ النَّاسَ مِنْ سُلُوكِها والْمُخاطَرَةِ بِأَنْفُسِهِمْ فِيها، وَلَكِنَّ جُهُودَهُ كُلَّها ذَهَبَتْ — فِي هَذا السَّبِيلِ — بِغَيْرِ فائِدَةٍ؛ فَإِنَّهُمْ كانُوا لا يَفْرُغُونَ مِنْ إقامَة جُزْءٍ مِنْ بناءِ السُّورِ — فِي الْمَساءِ، حَتَّى يَتَهَدَّمَ فِي الصَّباحِ، وتَرْفَعَ أَحْجارَهُ قُوَّةٌ سِحْرِيَّةٌ مَجْهُولَةٌ، ثُمَّ تَنْقُلَها إلَى مَكانِها الأَوَّلِ مِنَ الْجَبَلِ.

(٣) صَنادِيقُ الْحَلْوَى

كانَتْ «سُمَيَّةُ» تَعْلَمُ ذَلِكَ كُلَّهُ؛ فَصَرَفَتْ جُهْدَها كُلَّهُ لِتَسْتَمِيلَ إِلَيْهَا «شَرْهانَ» وَتَكْسِبَ صَداقَتَهُ. فَلَمْ تُقَصِّرْ فِي التَّوَدُّدِ إِلَيْهِ، وَمَنْحِهِ كُلَّ ما تَشْتَهِيهِ نَفْسُهُ، مِنْ لذائِذِ الْفَطائِرِ والْحَلْوَى. حَتَّى إِذا وَثِقَتْ مِنْ إِخْلاصِهِ لَها، وَأَيْقَنَتْ أَنَّهُ لَنْ يَعْصِيَ لَها أَمْرًا؛ اسْتَدْعَتْهُ إِلَيْها، وَأَسَرَّتْ إِلَيْهِ قَوْلَها: «ما رَأْيُكَ فِي صُنْدُوقٍ كَبِيرٍ مَمْلُوءٍ بِالْحَلْوَى، وَمِثْلِهِ مَمْلُوءٍ بِالْفَطائِرِ، وَثالِثٍ مَمْلُوءٍ بِالْجَوْزِ واللَّوْزِ الْمَخْلُوطَيْنِ بِالسُّكَّرِ؟»

فَقالَ لَها مُتَلَهِّفًا: «مَنْ لِي بِهَذِهِ الصَّنادِيقِ الْفاخِرَةِ، يا مَوْلاتِي؟»

فَقالَتْ لَهُ مُتَخابِثَةً: «فَكَيْفَ تَقُولُ فِيمَنْ يَحْرِمُكَ هَذِهِ الصَّنادِيقَ الْفاخِرةَ، وَيُعْطِيها سِواكَ، لِيَهْنَأَ بِأَكْلِها؟!»

فَقالَ لَها مَدْهُوشًا: «لَوْ تَمَّ هَذا لَهَلَكْتُ حُزْنًا. فَخَبِّرِينِي — يا سَيِّدتِي — ماذا عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَ حَتَّى لا يَفُوتَنِي هَذا الْغُنْمُ الْعَظِيمُ؟ إِنَّنِي لَأُفَضِّلُ الْمَوْتَ عَلَى الْحِرْمانِ.»

فَحَدَّقَتْ فِيهِ، ثُمَّ قالَتْ: «لَنْ أُكَلِّفَكَ إِلَّا شَيْئًا واحِدًا يَسِيرًا عَلَيْكَ إِنْجازُهُ.» فَقالَ لَها: «لَوْ كَلَّفْتِنِي أَنْ أَنْقُلَ الْجَبَلَ مِنْ مَكانِهِ لَما تَرَدَّدتُ فِي ذَلك.»

فَقالَتْ لَهُ باسِمَةً: «الْأَمْرُ أَيْسَرُ مِنْ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ. فَلَنْ أُكَلِّفَكَ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تَذْهَبَ بِالْأَمِيرَةِ «الشَّقْراءِ» قَرِيبًا مِنْ غابَةِ الزَّنْبَقِ، وَتُشَجِّعَها عَلَى تَرْكِ الْمَرْكَبَةِ، وَدُخُولِ الْغابَةِ.»

فاشْتَدَّ جَزَعُهُ، وَحاوَلَ أَنْ يَعْتَذِرَ؛ فَقالَتْ لَهُ غاضِبَةً: «ما دمْتَ لا تَسْتَطِيعُ أَنْ تُنْجِزَ ما أَمَرْتُكَ بِهِ، فَلَنْ تَظْفَرَ مِنْ هَذِهِ الصنادِيقِ بِشَيْءٍ، وَلَنْ أَسْمَحَ لِأَحَدٍ أَنْ يُعْطِيَكَ — مُنْذُ الْيَوْمِ — شَيْئًا مِنَ الْحَلْوَى.»

فانْزَعَجَ «شَرْهانُ» حِينَ سَمِعَ وَعِيدَها، وَقالَ لَها مُسْتَعْطِفًا باكِيًا: «بِرَبِّكِ لا تَفْعَلِي. مُرِينِي بِأَيِّ شَيْءٍ آخَرَ، فَلَنْ أَتَرَدَّدَ فِي تَنْفِيذِهِ أَبَدًا.»

فَقالَتْ لَهُ مُنْذِرَةً مُتَوَعِّدَةً: «لَيْسَ لِي مَطْلَبٌ غَيْرُ هَذا.»

فَقالَ لَها «شَرْهانُ»، وَقدِ امْتُقِعَ وَجْهُهُ: «إِنَّ الْأَمِيرَةَ إِذا دَخَلَتْ غَابَةَ الزَّنْبَقِ هَلَكَتْ، وَلَمْ تَخْرُجْ مِنْها أَبَدًا.»

فَقالَتْ لَهُ: «أَقُولُ لَكَ — آخِرَ الْأَمْرِ — مَرَّةً ثالِثَةً: أَتُرِيدُ أَنْ تَصْحَبَ «الشَّقْراءَ» إِلَى غابَةِ الزَّنْبَقِ؟»

فَقالَ لَها مُرْتَبِكًا مُتَحَيِّرًا: «فَكَيْفَ أَنْجُو مِنْ عِقابِ الْمَلِكِ وَقِصاصِهِ؟»

فَقالَتْ «سُمَيَّةُ»: «لا عَلَيْكَ — يا «شَرْهانُ» — فَلَنْ يُصِيبَكَ سُوءٌ، وَلَنْ يَلْحَقَكَ أَذًى. ارْجِعْ إِلَيَّ — فِي الْحالِ — مَتَى دَخَلَتِ الْأَمِيرَةُ غابَةَ الزَّنْبَقِ؛ فَإِذا نَجَحْتَ فِي هَذا الْمُهِمِّ، فَأَنا الْكَفِيلَةُ بِحِمايَتِكَ، وَإِرْسالِكَ إِلَى مَكانٍ أَمِينٍ.» فَقالَ لَها ضارِعًا مُتَذَلِّلًا: «رُحْماكِ يا مَوْلاتِي، وَلا تَدْفَعِنَّ بِي إِلَى إِهْلاكِ أَمِيرَتِي الصغِيرَةِ؛ فَإِنَّها طالَما أَحْسَنَتْ إِلَيَّ، وَما أَذْكُرُ لَها إِساءَةً واحِدَةً قَطُّ.»

فَأَجابَتْهُ «سُمَيَّةُ»: «أَمُتَرَدِّدٌ أَنْتَ فِي هَذِهِ الصَّفْقَةِ الرَّابِحَةِ، أَيُّها الْغَبِيُّ الْأَبْلَهُ؟ وَماذا يَهُمُّكَ مِنْ أَمْرِ «الشَّقْراءِ»؟ أَأُخْتُكَ هِيَ؟ أَمْ إِحْدَى قَرِيباتِكَ؟ وَماذا عَلَيْكَ أَنْ تَعِيشَ هِيَ أَوْ تَمُوتَ؟ اِذْهَبْ فَأَنْجِزْ ما أَمَرْتُكَ بِهِ. اِذْهَبْ وأنا ضَمِينَةٌ لَكَ بِمُضاعَفَةِ ما عَوَّدْتُكَ إِيَّاهُ مِنَ الْفَطائِرِ وَالحَلْوَى. وَسَأَجْعَلُكَ خادِمًا لِلْأَمِيرَةِ «السَّمْراءِ» مَتَى كُتِبَ لَكَ النَّجاحُ.»

فَوَقَفَ «شَرْهانُ» بُرْهَةً حائِرًا، يُقَدِّمُ رِجْلًا وَيُؤَخِّرُ أُخْرَى.

وَقَضَى يَوْمَهُ وَلَيْلَتَهُ ساهِرًا؛ فَحِينًا يَتَهَيَّبُ الْإِقْدامَ عَلَى تِلْكَ الْجَرِيمَةِ الشَّنْعاءِ، وَحِينًا يَدْفَعُهُ إِلَيْها حِرْصُهُ عَلَى الْحَلْوَى وَخَوْفُهُ مِنْ ضَياعِها إِذا رَفَضَ.

ثُمَّ قَدَّرَ فِي نَفْسِهِ أَنَّ أَمِيرَتَهُ قَدْ تَنْجُو مِنْ أَخْطارِ الْغابَةِ وَلا يُصِيبُها أَذًى؛ فَكانَ ذَلِكَ الْأَمَلُ فِي نَجاتِها يُهَوِّنُ عَلَيْهِ فَظاعَةَ جُرْمِهِ.

وَراح يُقْنِعُ نَفْسَهُ الْغادِرَةَ بِأَنَّ الْأَمِيرَةَ لَنْ تَعْدَمَ نَصِيرًا مِنْ جِنِّيَّاتِ الْغابَةِ الْعارِفاتِ بِمَزاياها، الْمُعْجَباتِ بِفَضائِلِها، الْقادِراتِ عَلَى إِنْقاذِها مِنْ وَرْطَتِها، وَتَخْلِيصِها مِنْ حَيْرَتِها.

وَهَكَذا زَيَّنَ لَهُ الطَّمَعُ أَنْ يَغْدِرَ بِمَوْلاتِهِ، وَسَهَّلَ عَلَيْهِ ما أَضْمَرَه مِنْ أَذِيَّةٍ وَشَرٍّ.

(٤) حِوارُ الْأَمِيرَةِ

فَلَمَّا جاءَ الْغَدُ، اسْتَقَلَّتِ الْأَمِيرَةُ مَرْكَبَتَها بَعْدَ أَنْ حَيَّتْ أَباها، مُسْتَأْذِنَةً إِيَّاهُ فِي التَّنَزُّهِ، عَلَى أَنْ تَعُودَ إِلَيْهِ بَعْدَ ساعَتَيْنِ.

وَكانَتِ الْحَدِيقَةُ الْمَلَكِيَّةُ كَبِيرَةً مُتَرامِيَةَ الْأَطْرافِ.

وَقَدِ اتَّجَهَ «شَرْهانُ» — أَوَّلَ ما اتَّجَهَ بِالْمَرْكَبَةِ — فِي طَرِيقٍ لا يَصِلُ سالِكُها إِلَى غابَةِ الزَّنْبَقِ، حَتَّى إِذا بَعُدَ عَنِ الْقَصْرِ حَوَّلَ سَيْرَها صَوْبَ الْغَابَةِ. وَقَدْ ثَقُلَتِ الْجَرِيمَةُ عَلَى قَلْبِهِ وَضَمِيرِهِ، فَجَلَسَ فِي الْمَرْكَبَةِ واجِمًا، حَزِينَ الْقَلْبِ مَهْمُومًا.

فَقالَتْ لَهُ «الشَّقْراءُ»: «ماذا بِكَ، يا «شَرْهانُ»؟ ما بالُكَ صامِتًا مُسْتَسْلِمًا لِلْهُمُومِ؟ أَتُراكَ مَرِيضًا؟»

فَقالَ لَها مُتَأَلِّمًا: «كَلَّا — أَيَّتُها الْأَمِيرَةُ — لَسْتُ بِمَرِيضٍ، بَلْ أَنا صَحِيحٌ مُعافًى، لا أَشْعُرُ بِأَيِّ أَلَمٍ جُسْمانِيٍّ.»

فَقالَتْ لَهُ مُتَعَجِّبَةً: «فَماذا بِكَ، أَيُّها الْمِسْكِينُ؟ وَما بالُكَ مُمْتَقَعَ الْوَجْهِ؟ حَدِّثْنِي بِحَقِيقَةِ أَلَمِكَ، وَلا تَخْشَ شَيْئًا؛ فَإِنِّي باذِلَةٌ جُهْدِي لِإِسْعادِكَ وَكَشْفِ غُمَّتِكَ.»

فَكادَ قَلْبُ «شَرْهانَ» يَنْفَطِرُ حُزْنًا وَأَسَفًا إِزاءَ هَذا الْعَطْفِ النَّبِيلِ، وَكادَ يَعْدِلُ عَنْ جَرِيمَتِهِ. وَلكِنَّ خَوْفَهُ أَنْ يُحْرَمَ الْحَلْوَى الَّتِي وَعَدَتْهُ بِها مَوْلاتُهُ، أَخْمَدَ فِي نَفْسِهِ رُوحَ الْخَيْرِ.

وَإِنَّهُ لَغارِقٌ فِي تَرَدُّدِهِ، مُسْتَسْلِمٌ لِحَيْرَتِهِ، إِذْ بَلَغَتِ النَّعامَتانِ حاجِزَ الْغابَةِ، وَوَقَفَتا بِالْقُرْبِ مِنْ سُورِها. فَقالَتِ «الشَّقْراءُ»: «يا للهِ! ما أَجْمَلَ هَذِهِ الزَّنْبَقَةَ! وَما أَطْيَبَ رائِحَتَها! شَدَّ ما يَبْهَجُنِي أَنْ أَجْمَعَ طاقَةً كَبِيرَةً مِنَ الزَّنْبَقِ الْبَدِيعِ، لِأُهْدِيَها إِلَى والِدِيَ الْعَزِيزِ. بِرَبِّكَ — يا «شَرْهانُ» — إِلا ما أَسْرَعْتَ بِإِحْضارِ هَذِهِ الطَّاقَةِ!»

فَقالَ لَها واجِمًا: «كَلاَّ، لا أَسْتَطِيعُ النُّزُولَ — يا أَمِيرَةُ — فَرُبَّما مَشَتِ النَّعامَتان بِالْمَرْكَبَةِ.»

فَقالَتِ «الشَّقْراءُ»: «لا عَلَيْكَ مِنْ ذلِكَ، يا «شَرْهانُ». فَما أَيْسَرَ أَنْ أَعُودَ بِالْمَرْكَبَةِ وَحْدِي إِلَى الْقَصْرِ.»

فَقالَ «شَرْهانُ»: «لَوْ تَسَمَّحْتُ فِي ذَلِكِ لَعَنَّفَنِيَ الْمَلِكُ أَشَدَّ تَعْنِيفٍ عَلَى تَرْكِي إِيَّاكِ وَحِيدَةً. فاذْهَبِي بِنَفْسِكِ — إِذا شِئْتِ — لِتَتَخَيَّرِي ما يَحْلُو لَكِ مِنْ أَزْهارٍ». فَقَفَزَتِ «الشَّقْراءُ» مِنْ الْمَرْكَبَةِ فِي الْحالِ.

(٥) نَجاحُ الْمُؤَامَرَةِ

وَما اجْتازَتِ «الشَّقْراءُ» قَوائِمَ الْحاجِزِ حَتَّى انْدَفَعَتْ إِلَى أَزْهارِ الزَّنْبَقِ تَقْطِفُ مِنْها ما تَشاءُ.

وَسَرَتِ الرِّعْشَةُ فِي جِسْمِ «شَرْهانَ» فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، وَداخَلَ قَلْبَهُ الْوَخْزُ والتَّأْنِيبُ. وَأَرادَ أَنْ يَتَلافَى خَطِيئَتَهُ؛ فَأَسْرَعَ إِلَيْها يُنادِيها، ولَكِنَّها — وَهِيَ عَلَى مَسافَةِ خُطُواتٍ قَلِيلَةٍ مِنْهُ — لَمْ تَسْمَعْ صَيْحاتِهِ الْعالِيَةَ، كَأَنْما أُصِيبَتْ بِالصَّمَمِ. وَظَلَّتْ تَتَقَدَّمُ فِي سَيْرِها قَلِيلًا قَليلًا؛ وَرآها — مُدَّةً طَوِيلَةً — تَقْطِفُ الزَّنْبَقَ، ثُمَّ غابَتْ عَنْ عَيْنَيْهِ.

فَغَلَبَهُ الْبُكاءُ حِينَ تَمَثَّلَتْ لَهُ شَناعَةُ جُرْمِهِ، وراحَ يَلْعَنُ الشَّرَهَ والْحِرْصَ، وَيَحْقِدُ عَلَى «سُمَيَّةَ» الَّتِي أَغْرَتْهُ بِاقْتِرافِ هَذا الْجُرْمِ الْفَظِيعِ.

وَلَمَّا حانَ الْوَقْتُ الَّذِي تَعُودُ «الشَّقْراءُ» فِيهِ إِلَى الْقَصْرِ، لَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنَ الرُّجُوعِ بِمُفْرَدِهِ. فَدَخَلَ الإِصْطَبْلَ مِنَ الْبابِ الْخَلْفِيِّ، وأَسرَعَ إِلَى لِقاءِ الْمَلِكَةِ. وَكانَتْ تَرْقُبُهُ وَهِيَ عَلَى أَحَرَّ مِنَ الْجَمْرِ؛ فَلَمَّا رَأَتْهُ مُمْتَقَعَ الْوَجْهِ، زائِغَ الْبَصَرِ، وَقَدِ احْمَرَّتْ عَيْناهُ مِنَ الدُّمُوعِ: عَرَفَتْ أَنَّ «الشَّقْراءَ» قَدْ فُقِدَتْ.

فَسَأَلَتْهُ مُتَلَهِّفَةً: «لَعَلَّكَ أَنْجَزْتَ الْوَعْدَ؟»

فَاكْتَفَى بِهَزِّ رأْسِهِ، عَجْزًا عَنِ الْكَلامِ.

فَلَمَّا اطْمَأَنَّتْ إِلَى نَجاحِ كَيْدِها، أَحْضَرَتْ لَهُ ما وَعَدَتْهُ بِهِ مِنْ صَنادِيقِ الْحَلْوَى. ثُمَّ أَمَرَتْ بَعْضَ خَدَمِها أَنْ يَحْمِلَ الصَّنادِيقَ عَلَى بَغْلٍ مِنْ بِغالِ أَبِيها الَّتِي حُمِلَتْ عَلَيْها

نَفائِسُها وَحُلِيُّها. ثُمَ أَهْدَتْ إِلَيْهِ نَفائِسَ مِنَ السَّبائِكِ الذَّهَبِيَّةِ، وَبَعَثَتْ بِرِسالَةٍ مَعَهُ إِلَى أَبِيها تُوصِيهِ بِهِ خَيْرًا.

ثُمَّ أَمَرَتْ «شَرْهانَ» أَنْ يَعُودَ إِليْها بَعْدَ شَهْرَيْنِ، لِتُعْطِيَهُ نَفَائِسَ أُخْرَى مِنْ هَداياها وَحَلْواها.

(٦) عِقــابُ الْحِرْصِ

فَرَكِبَ ظَهْرَ الْبَغْلِ، وَراحَ يَحُثُّه عَلَى الْإِسْراعِ فِي عَدْوِهِ. وَلَكِنْ سُرْعانَ ما أَعْجَزَ الْبَغْلَ ثِقْلُ ما يَحْمِلُ؛ فَحَرَنَ وَظَلَّ يَقْفِزُ قَفَزاتٍ عَنِيفَةً.

وَكان «شَرْهانُ» لا يُحْسِنُ رُكُوبَ جَوادٍ وَلا بَغْل؛ فَلَمْ يَتَمالَكْ أَنْ سَقَطَ عَلَى صَخْرَةٍ عاتِيَةٍ، وَسَقَطَتْ مَعَهُ الْأَحْمالُ؛ فَتَحَطَّمَ رَأْسُهُ، وماتَ عَلَى الْفَورِ؛ بَعْدَ أَنْ خَسِرَ مُكافَأَتَهُ، وَشَرَفَهُ وَحَياتَه!

الفصل الثالث

(١) فِي غابَةِ الزَّنْبَقِ

لَمْ تَدْخُلِ «الشَّقْراءُ» الْغابَةَ حَتَّى شُغِلَتْ بِقَطْفِ أَزْهارِ الزَّنْبَقِ، وَقَدْ جَمَعَتْ مِنْها الْكَثِيرَ. وَمَضَى عَلَى «الشَّقْراءِ» أَكْثَرُ مِنْ ساعَةٍ وَهِيَ مُنْصَرِفَةٌ إِلَى ذَلِكَ؛ فَحَلَّ بِها التَّعَبُ؛ وَآلَمَتْها حَرارَةُ الشَّمْسِ، وَثَقُلَ عَلَيْها ما حَمَلَتْهُ مِنْ طاقاتِ الزَّنْبَقِ. وَرَأَتْ أَنَّها قَدْ تَأَخَّرَتْ عَنِ الْمَوْعِدِ الَّذِي أَلِفَتْ أَنْ تَعُودَ فِيهِ إِلَى الْقَصْرِ؛ فَنادَتْ «شَرْهانَ» — وَهِيَ تَحْسَبُهُ مِنْها قَرِيبًا — فَلَمْ يُجِبْها أَحَدٌ. فَقالَتْ لِنَفْسِها: «يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّنِي قَدْ أَوْغَلْتُ فِي الْغابَةِ، وَساقَتْنِي فِيها قَدَمايَ إِلَى أَبْعَدَ مِمَّا ظَنَنْتُ: فَلْأُبادِرْ بِالْعَوْدَةِ — بِرَغْمِ ما حَلَّ بِي مِنَ التَّعَبِ — حَتَّى لا يَطُولَ انْتِظارُ «شَرْهانَ» الْمِسْكِينِ.»

وَسارَتِ «الشَّقْراءُ» حَتَّى جَهَدَها السَّيْرُ، دُونَ أَنْ تُبْصِرَ نِهايَةَ الْغابَةِ.

(٢) حُزْنُ «الشَّقْراءِ»

فَراحَتْ تُنادِي «شَرْهانَ» نِداءً مُتَّصِلًا مُتَتابِعًا؛ فَلَمْ يُجِبْها أَحَدٌ. وَأَخِيرًا دَبَّ إِلَى قَلْبِها الْخَوْفُ، فَقالَتْ تُحَدِّثُ نَفْسَها: «تُرَى كَيْفَ يَكُونُ مَصِيرِي، بَعْدَ أَنْ تِهْتُ فِي هذِهِ الْغابَةِ، وَأَصْبَحْتُ وَحِيدَةً لا رائِدَ لِي وَلا مُعِينَ؟ تُرَى ماذا يَقُولُ أَبِي وَقَدْ حانَ مَوْعِدُ عَوْدَتِي فَلَمْ أَعُدْ؟ وَماذا يَصْنَعُ «شَرْهانُ»؟ وَكَيْفَ يَعُودُ الْمِسْكِينُ إِلَى الْقَصْرِ وَحِيدًا وَلَسْتُ مَعَهُ؟ لَطَفَ اللهُ بِكَ «يا شَرْهانُ». شَدَّ ما أَسَأْتُ إِلَيْكَ إِذْ عَرَّضْتُكَ لِتَعْنِيفِ أَبِي وَتَأْنِيبِهِ، وَلَوْمِهِ وَتَأْدِيبِهِ. وَأَخْشَى ما أَخْشاهُ أَنْ يَضْرِبَكَ عَلَى ذَنْبٍ لَمْ تَجْنِهِ، وَيُعاقِبَكَ عَلَى جُرْمٍ لا يَدَ لَكَ

فِيهِ. أَلا لَيْتَهُ يَعْرِفُ أَنَنِي — أَنا وَحْدِيَ — الْمُذْنِبَةُ. وَما أَدْرِي كَيْفَ أَتَلافَى هَذا الْخَطَأَ؟ وَأَحْسَبُنِي سَأَمُوتُ اللَّيْلَةَ — فِي هَذِهِ الْغابَةِ — عَطَشًا وَجُوعًا، إِذا نَجَوْتُ مِنْ ذِئابِها الضَّارِيَةِ وَضِباعِها، وَنُمُورِها الْمُفْتَرِسَةِ وَسِباعِها.»

وَعَجَزَتِ الْأَمِيرَةُ عَنْ مُواصَلَةِ السَّيْرِ؛ فَجَلَسَتْ تَنْدُبُ حَظَّها، إِلَى أَنْ غَلَبَها الْإِعْياءُ والتَّعَبُ، فَأَسْنَدَتْ رَأْسَها إِلَى طاقاتِ الزَّنْبَقِ الَّتِي قَطَفَتْها.

وَلَمْ تَلْبَثْ أَنِ اسْتَسْلَمَتْ لِرُقادٍ طَوِيلٍ.

الفصل الرابع

(١) يَقَظَةُ الْأَمِيرَةِ



نامَتِ «الشَّقْراءُ» طُولَ اللَّيْلِ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ لِأَذاها كائِنٌ كانَ، مِنْ سِباعِ الطَّيْرِ والْحَيَوانِ، وَعَفَارِيـتِ الإِنْسِ والْجانِّ. واسْتَيْقَظَتْ فِي الضُّحَى، وَفَرَكَتْ عَيْنَيْها.

وَلا تَسَلْ عَنْ دَهْشَتِها حِينَ رَأَتْ أَشْجارَ الْغابَةِ تُحِيطُ بِها مِنْ كُلِّ جانِبٍ.

وَتَلَفَّتَتْ حائِرَةً، فإِذا هِيَ بَعِيدَةٌ عَنْ حُجْرَتِها الَّتِي أَلِفَتْ أَنْ تَبِيتَ فِيها. واشْتَدَّتْ بِها الْحَيْرَةُ؛ فَصَرَخَتْ تُنادِي مُرَبِّيَتَها، فَسَمِعَتْ مُواءً لَطِيفًا بِالْقُرْبِ مِنْها.

(٢) أَبُو «خِداشٍ»

وَنَظَرَتْ فإِذا قِطٌّ بَدِيعٌ جالِسٌ عِنْدَ قَدَمَيْها، يَنْظُرُ إِلَيْها مُتَوَدِّدًا مُتَعَطِّفا. وَكانَ بَياضُ شَعْرِهِ الْجَمِيلِ فِي مِثْلِ نَصاعَةِ الثَّلْجِ، وَقَدْ تَجَلَّتْ فِي عَيْنَيْهِ نَظَراتُ الْعَطْفِ والْإِشْفاقِ، وانْبَعَثَ مِنْ مُوائِهِ صَوْتُ الْحَفاوَةِ والاشْتِياقِ. فاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ، وَرَبَّتَتْ ظَهْرَهُ، وَأَمَرَّتْ يَدَها مُتَرَفِّقَةً عَلَيْهِ، ثُمَّ قالَتْ لَهُ: «ما أَجْمَلَكَ، يا «أَبا خِداشٍ» الْجَمِيلَ! شَدَّ ما أَنا مَسْرُورَةٌ بِرُؤْيَتِكَ. فَهَلْ أَجِدُ فِيكَ مُرْشِدًا يَهْدِينِي سَبِيلَ العَوْدَةِ إِلَى بَيْتِي؟ عَلَى أَنَّنِي — وا أَسَفاهُ — جائِعَةٌ، وَلَمْ يَبْقَ لِي قُوَّةٌ عَلَى السَّيْرِ قَبْلَ أَنْ آكُلَ.»

(٣) مائِدَةُ الْقِطِّ

وَما انْتَهَتْ مِنْ هَذِهِ الْكَلِماتِ، حَتَّى أَخَذَ السِّنَّوْرُ الْجَمِيلُ يَمُوءُ مُواءً لَطِيفًا، وَيُشِيرُ بِيَدِهِ الصَّغِيرَةِ إِلَى رَيْطَةٍ (مُلاءَةٍ) مِنَ النَّسِيجِ الْأَبْيَضِ الرَّقِيقِ، مَلْفُوفَةٍ بِإِحْكامٍ إِلَى جانِبِها. فَلَمَّا فَتَحَتْها وَجَدَتْ فِيها شَطائِرَ لَذِيذَةً مِنَ الْخُبْزِ والزُّبْدِ. فَقَضَمَتْ واحِدَةً مِنْها، فَأَلْفَتْها سائِغَةً لَذِيذَةَ الطَّعْمِ. فَلَمْ تَشَأْ أَنْ تَنْفَرِدَ بِها، وَأَبَتْ إِلا أَنْ تَشْرَكَ مَعَها السِّنَّوْرَ فِي أَكْلِها، فَقاسَمَتْهُ إِيَّاها.

وَلَمَّا انْتَهَيا مِنَ الطَّعامِ، أَقْبَلَتْ عَلَى السِّنَّوْرِ حانِيَةً قائِلَةً: «أَلْفُ شُكْرٍ لَكَ عَلَى ما قَدَّمْتَهُ لِي مِنْ فَطُورٍ شَهِيٍّ يا «أَبا خِداشٍ» الْجَمِيلَ. فَهَلْ أَجِدُ فِيكَ مُعِينًا يَهْدِينِي إِلَى بَيْتِ أَبِي؟»

فَهَزَّ السِّنَّوْرُ الْجَمِيلُ رَأْسَهُ مَحْزُونًا وَهُوَ يَمُوءُ فِي حَسْرَةٍ وَأَلَمٍ.

فَقَالَتِ «الشَّقْراءُ»: «ما دُمْتَ قَدْ فَهِمْتَ ما أَقُولُ، فَلا تَتَرَدَّدْ فِي الذَّهابِ مَعِي إِلَى الْمَنْزِلِ، رَحْمَةً بِي، وَبِرًّا بِأَبِي.»

فَنَظَرَ إِلَيْها «أَبُو خِداشٍ» وَهَزَّ رَأْسَهُ الْأَبْيَضَ هِزَّةً عَرَفَتْ مِنْها أَنَّهُ قَدْ فَهِمَ حَدِيثَها. ثُمَّ وَقَفَ السِّنَّوْرُ لَحْظَةً، وَمَشَى عِدَّةَ خُطُواتٍ.

ثُمَ الْتَفَتَ إِلَى الْخَلْفِ، لِيَرَى هَلْ فَهِمَتِ «الشَّقْراءُ» ما عَناهُ بِإِشارَتِهِ، وَهَلْ تَبِعَتْهُ واقْتَفَتْ أَثَرَهُ.

فَقالَتْ لَهُ: «شُكْرًا لَكَ، يا «أَبا خِداشٍ» الْجَمِيلَ. هَأَنَذِي مُقْتَفِيَةٌ خُطُواتِكَ، مُهْتَدِيَةٌ بِهَدْيِكَ، وَإِنْ كُنْتُ لا أَدْرِي: كَيْفَ نَسْتَطِيعُ اخْتِراقَ هَذِهِ الْأَشْجارِ الْمُلْتَفَّةِ، وَلَيْسَ فِيها مَنْفَذٌ كَما تَرَى؟»

فَطَمْأَنَها السِّنَّوْرُ بِإِشارَةٍ لَمْ يَخْفَ عَلَيْها مَعْناها. ثُمَ انْدَفَعَ بَيْنَ الْأَعْشَابِ الْمُلْتَفَّةِ والْأَشْجارِ الْمُشْتَبِكَةِ؛ فانْفَرَجَتْ — مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِها — لِتُفْسِحَ الطَّرِيقَ للسِّنَّوْرِ وَضَيْفِهِ، وَما اجْتازا الأَعْشابَ حَتَّى تَشابَكَتْ خَلْفَهُما كَما كانَتْ مِنْ قَبْلُ. وَكانا كُلَّما تَقَدَّما فِي سَيْرِهِما زادَتِ الْغابَةُ وُضُوحًا وَضَوْءًا، وَرَقَّتِ الْحَشائِشُ، وَتَعَطَّرَ الزَّهْرُ، وَغَرَّدَ الطَّيْرُ، واسْتَوْلَى الْمَرَحُ عَلَى السَّناجِيبِ، فَراحَتْ تَتَسَلَّقُ الْغُصُونَ مُبْتَهِجَةً ناشِطَةً.

وَقَدِ امْتَلَأَتْ نَفْسُ «الشَّقْراءِ» سُرُورًا بِما رأَتْ، وأَيْقَنَتْ أَنَّ بَقاءَها فِي الْغابَةِ لَنْ يَطُولَ، وَأَنَّها عَلَى وَشْكِ أَنْ تَنْعَمَ بِلِقاءِ أَبِيها. فَنَسِيَتْ هُمُومَها، وَشَغَلَها جَمالُ الْأَزْهارِ عَنْ آلامِها؛ فَوَقَفَتْ — بَيْنَ حِينٍ وآخَرَ — لِتَقْطِفَ مِنْ بَدائِعِ الزَّهْرِ ما يَحْلُو لَها أَن تَقْطِفَهُ.

وَكانَ «أَبُو خِداشٍ» يُتابِعُ مُواءَهُ يَسْتَحِثُّها عَلَى السَّيْرِ قُدُمًا، وَيَتَعَجَّلُها كُلَّما أَبْطَأَتْ.

(٤) قَصْرُ الْغِزْلانِ

وَلَمْ تَنْقَضِ عَلَيْهِما ساعَةٌ حَتَّى بَلَغا قَصْرًا عَظِيمًا مَكْتُوبًا عَلَى بابِهِ: «قَصْرُ الْغِزْلانِ»؛ فَوَقَفَتِ «الشَّقْراءُ» أَمامَ سُورِهِ الذَّهَبِيِّ، وَهِيَ لا تَدْرِي: كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى الدُّخُولِ، وَلَيْسَ بِالْقَصْرِ حَرَسٌ، وَلا جَرَسٌ، والْحاجِزُ الْخارِجِيُّ مُقْفَلٌ؟

وَهُنا اسْتَخْفَى السِّنَّوْرُ الْجَمِيلُ، وَبَقِيَتِ «الشَّقْراءُ» وَحْدَها أَمامَ بابِ الْقَصْرِ مُنْفَرِدَةً.

الفصل الخامس

(١) غِزْلانُ الْغابَةِ



وَدَخَلَ السِّنَّوْرُ الْجَمِيلُ مِنْ مَمَرٍّ صَغِيرٍ، لَعَلَّهُ صُنِعَ لِأَجْلِهِ وَحْدَهُ. وَلَعَلَّ السِّنَّوْرَ قَدْ أَبْلَغَ حارِساتِ الْقَصْرِ — مِنَ الْغِزْلانِ — أَنَّ ضَيْفًا جَدِيدَةً قَدْ وفَدَتْ عَلَيْهِ. فَلَمْ يَدْخُلِ السِّنَّوْرُ حَتَّى فُتِحَ الْحاجِزُ قَبْلَ أَنْ تُفَكِّرَ «الشَّقْراءُ» فِي نِداءِ أَحَدٍ مِنْ ساكِنِيهِ. فَدَخَلَتْ فِناءَ الْقَصْرِ مِنْ فُرْجَتِهِ، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا.

ثُمَّ فُتِحَ بابُ الْقَصْرِ — مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِهِ — فَدَخَلَتِ «الشَّقْراءُ» سِرْدابًا مُشَيَّدًا بِالرُّخامِ الْأَبْيَضِ النَّادِرِ. ثُمَّ فُتِحَتِ الْأَبْوابُ كُلُّها مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِها، فَرَأَتْ كَثِيرًا مِنَ الْقاعاتِ الْفاخِرَةِ وَالْأَفْناءِ الرَّحْبَةِ.

(٢) أَمِيرَةُ الْغِزْلانِ

ثُمَ رَأَتْ — آخِرَ الْأَمْرِ — قاعَةً كَبِيرَةً، بَدِيعَةَ الْهَنْدَسَةِ، تَنْتَهِي بِمَخْدَعٍ أَزْرَقَ مُحَلًّى بِالذَّهَبِ، وَعَلَيْهِ أَمِيرَةُ غِزْلانِ الْغابَةِ، وَهِيَ وَعِلَةٌ بَيْضاءُ راقِدَةٌ عَلَى سَرِيرٍ مِنَ الْحَشائِشِ الرَّقِيقَةِ الْمُعَطَّرَةِ. وَحانَتْ مِنَ «الشَّقْراءِ» الْتِفاتَةٌ، فَرَأَتْ «أَبا خِداشٍ» جاثِمًا بِالْقُرْبِ مِنْها.

وَلَمْ تَرَ أَمِيرَةُ الْغِزْلانِ الْأَمِيرَةَ «الشَّقْراءَ» مُقْبِلَةً عَلَيْها، حَتَّى وَقَفَتْ لِتَحِيَّتِها، واسْتَقْبَلَتْها مُبْتَهِجَةً بِمَقْدَمِها، قائِلَةً بِلِسانٍ فَصِيحٍ: «أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا بِالْأَمِيرَةِ «الشَّقْراءِ» بِنْتِ الْمَلِيكِ الْعَظِيمِ: «حَبِّ الرُّمَّانِ». أَلا تَعْلَمِينَ أَنَّ وَلَدِي «أَبا خِداشٍ» الْجَمِيلَ يَنْتَظِرُ قُدُومَكِ بِفارِغِ الصَّبْرِ، مُنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ؟»

وَلَمَّا رَأَتِ «الشَّقْراءَ» مُتَرَدِّدَةً يَبْدُو عَلَى سِيماها الْخَوْفُ، قالَتْ لَها: «كُونِي مُطْمَئِنَّةً، يا «شَقْراءُ»، فَإِنَّما أَنْتِ — هُنا — مَعَ أَصْدِقاءَ. وَأَنا أَعْرِفُ أَباكِ مُنْذُ نَشَأَ، وَقَدْ أَحْبَبْناهُ جَمِيعًا لِعَدْلِهِ وَحَزامَتِهِ، وَكَرَمِهِ وَأَرْيَحِيَّتِهِ.»

فَقالَتِ «الشَّقْراءُ»، وَقَدْ عادَتْ إِلَيْها الطُّمَأْنِينَةُ، وَغَمَرَتْها الدَّهْشَةُ: «أَعارِفَةٌ أَنْتِ والِدِي؟ فَبِاللهِ عَلَيْكِ — يا أَمِيرَةَ الْغِزْلانِ — إِلَّا ما أَسْرَعْتِ بِي إِلَيْهِ؛ لِتُخَفِّفِي مِنْ قَلَقِهِ عَلَيَّ، وَحُزْنِهِ لِفِراقِي!»

(٣) ساحِرُ الْغابَةِ

فَقالَتِ الْوَعِلَةُ وَهِيَ تَتَنَهَّدُ مُتَحَسِّرَةً: «لَيْسَ فِي قُدْرَتِي — يا عَزِيزَتِي «الشَّقْراءَ» — أَنْ أَرُدَّكِ إِلَى أَبِيكِ الآنَ. فَإِنَّ مَنْ يَدْخُلُ هَذِهِ الْغابَةَ يُصْبِحُ — فِي الْحالِ — تَحْتَ سُلْطانِ ساحِرِها الْغَلَّابِ الَّذي يَمْلِكُ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ — وَحْدَهُ — فِي غابَةِ الزَّنْبَقِ هَذِهِ. وَما بِيَ قُدْرَةٌ عَلَى مُعارَضَتِهِ لِأَنَّ سُلْطانَهُ فَوْقَ سُلْطانِي. عَلَى أَنَّنِي أَسْتَطِيعُ أَنْ أُرْسِلَ إِلَى أَبِيكِ أَحْلامًا سارَّةً بَهِيجَةً، تُطَمْئِنُهُ عَلَيْكِ، وَتُعَرِّفُهُ أَنَّكِ عِنْدِي، وَتَمْلَأُ نَفْسَهُ ثِقَةً وَرَجاءً.»

فَقالَتِ «الشَّقْراءُ» جازِعَةً: «وَهَلْ أَظَلُّ بَعِيدَةً عَنْ أَبِي إِلَى الْأَبَدِ، لا أَنْعَمُ بِلُقْياهُ؟»

فَقالَتِ الْوَعِلَةُ: «لا حاجَةَ بِنا إِلَى التَّكَهُّنِ بِالْمُسْتَقْبَلِ؛ فَهُوَ غَيْبٌ لا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ سُبْحانَهُ. عَلَى أَنَّ لِلْحِكْمَةِ والرَّزانَةِ والاجْتِهادِ دائِمًا عاقِبَةً مَحْمُودَةً. فَلا يَدْخُلَنَّ الْيَأْسُ إِلَى قَلْبِكِ، وَلا بُدَّ مِنَ الْإِذْعانِ لِقَضاءِ اللهِ. فاعْتَصِمِي بِفَضائِلِكِ وَمَزاياكِ النَّبِيلَةِ حَتَّى يَأْتِيَ الْفَرَجُ.»

فَتَنَهَّدَتِ «الشَّقْراءُ» وَلَمْ تَتَمالَكْ أَنْ ذَرَفَتْ عَيْناها دَمْعَتَيْنِ، حُزْنًا عَلَى هَذا الْمَصِيرِ. ثُمَّ اسْتَعادَتِ «الشَّقْراءُ» شَجاعَتَها، وَتَجَلَّدَتْ مُتَأَسِّيَةً، فَلَمْ تَلْبَثِ الطُّمَأْنِينَةُ أَنْ حَلَّتْ مَحَلَّ الْجَزَعِ.

وَأَقْبَلَتْ عَلَيْها أَمِيرَةُ الْغِزْلانِ وابْنُها يُؤَسِّيانِها، وَيُرِيانِها الْحُجْرَةَ الَّتِي أَعَدَّاها لَها فِي الْقَصْرِ، وَقَدْ فُرِشَتْ كُلُّها بِالْحَرِيرِ الْوَرْدِيِّ الْمُطَرَّزِ بِالذَّهَبِ. وَقَدْ صُنِعَ أَثاثُ الْحُجْرَةِ مِنَ الْمُخْمَلِ الْأَبْيَضِ مُوَشًّى بِأَلْوانِ الْحَرِيرِ الْمُتَأَلِّقَةِ الَّتِي تُمَثِّلُ جَمِيعَ أَنْواعِ الْحَيَوانِ والطُّيُورِ والْفَراشِ والْحَشَراتِ. وَرَأَتْ بِالْقُرْبِ مِنْ حُجْرَةِ الْأَمِيرَةِ حُجْرَةً أُخْرَى، وَهِيَ مَفْرُوشَةٌ بِالدِّمَقْسِ السَّماوِيِّ اللَّوْنِ، الْمُطَرَّزِ بِاللَّآلِئِ الصَّغِيرَةِ، وَقَدْ صُنِعَ أَثاثُها مِنْ نَسِيجٍ ثَمِينٍ تَتَمَوَّجُ فِيهِ أَبْراجٌ فِضِّيَّةٌ مُثَبَّتَةٌ بِمَسامِيرَ كَبِيرَةٍ ثَمِينَةٍ. وَعُلِّقَتْ عَلَى الْجُدْرانِ صُورَتانِ بَدِيعَتانِ تُمَثِّلانِ فَتاةً جَمِيلَةً فِي مُقْتَبَلِ شَبابِها، وَفَتًى جَمِيلًا فِي مُقْتَبَلِ شَبابِهِ، وَتَدُلُّ مَلابِسُهُما عَلَى أَنَّهُما أَخَوانِ شَقِيقانِ، مِنْ سُلالَةٍ مُلُوكِيَّةٍ عَرِيقَةٍ فِي الْمُلْكِ والسُّلْطانِ. فَسَأَلَتِ «الشَّقْراءُ» أَمِيرَةَ الْغِزْلانِ: «لِمَنْ هاتانِ الصُّورَتانِ، يا سَيِّدَتِي «أُمَّ عَزَّةَ»؟»

فَأَجابَتْها الْوَعِلَةُ: «مَحْظُورٌ عَلَيْنا — نَحْنُ: جَماعَةَ الْوُعُولِ والْغِزْلانِ — أَنْ نُجِيبَ عَنْ أَمْثالِ هَذا السُّؤَالِ، وسَتَعْلَمِينَ جَوابَهُ بَعْدَ حِينٍ. وَها قَدْ حانَ وَقْتُ الْعَشاءِ. فَهَلُمِّي، يا «شَقْراءُ» إلَى الطَّعامِ، فَما أَظُنُّكِ إلَّا جائِعَةً.»

وَلَقَدْ صَدَقَتْ أَمِيرَةُ الْغِزْلانِ؛ فَقَدْ كادَتِ «الشَّقْراءُ» حِينَئِذٍ تَمُوتُ جَوْعًا. وَذَهَبَتِ «الشَّقْراءُ» — عَلَى أَثَرِ «أُمِّ عَزَّةَ» — إلَى حُجْرَةٍ فاخِرَةٍ، بِها مائِدَةٌ حافِلَةٌ، جُهِّزَتْ بِطَرِيقَةٍ غَرِيبَةٍ. وَكانَتْ بِها وِسادَةٌ كَبِيرَةٌ مِنَ الدِّمَقْسِ لِجُلُوسِ «أُمِّ عَزَةَ»: أَمِيرَةِ الْغِزْلانِ، وَطَنافِسُ وَزَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ «بُسُطٌ مَنْشُورَةٌ»، وَأَمامَها — عَلَى الْمائِدَةِ — طاقَةٌ مِنَ الرَّياحِينِ الْفَوَّاحَةِ، وَبِالْقُرْبِ مِنْها إناءٌ مِنْ خالِصِ الذَّهَبِ مَمْلُوءٌ بِالْماءِ الْبارِدِ الْعَذْبِ. وَكانَ بِالْقُرْبِ مِنْ «أُمِّ عَزَّةَ» كُرْسِيٌّ صَغِيرٌ مرْتَفِعٌ لِجُلُوسِ «أَبِي خِداشٍ»، وَأَمامَهُ إناءٌ مُجَوَّفٌ بِهِ سَمَكٌ مَشْوِيٌ وَأَفْخاذٌ مَقْلِيَّةٌ بِالسَّمْنِ. وَإلَى جانِبِهِ إناءٌ — مِنْ بِلَّوْرٍ — مَتِينٌ مَمْلُوءٌ بِاللَّبَنِ الْحَلِيبِ. وَرَأَتِ الْأَمِيرَةُ كُرْسِيَّها بَيْنَ مَقْعَدَيْ «أَمِيرَةِ الْغِزْلانِ» وابْنِها، وَقَدْ أُعِدَّ لِلسِّنَّوْرِ «أَبِي خِداشٍ» — عَلَى الْمائِدَةِ — كُرْسِيٌّ صَغِيرٌ مِنَ الْعاجِ، عَلَيْهِ بَدائِعُ مِنَ النَّقْشِ. وامْتَلَأَتِ الصَّحْفَةُ بِحَساءٍ لَذِيذٍ، وَإلَى جِوارِها كُوبٌ ثَمِينٌ، وَإناءٌ بَدِيعُ الصُّنْعِ مَمْلُوءٌ بِالْماءِ، وَكِلاهُما مِنَ الْبِلَّوْرِ الصَّخْرِيِّ النَّفِيسِ، وَإلَى جانِبِ ذَلِكَ ما شِئْتَ مِنْ لَذِيذِ الْأَطْعِمَةِ. وَرَأَتْ مِلْعَقَةً وَشَوْكَةً مِنَ الذَّهَبِ، وَمِنْشَفَةً مِنَ النَّسِيجِ الرَّقِيقِ الثَّمِينِ، لَمْ تَرَ لَها — فِي قَصْرِ أَبِيها — مَثِيلًا قَطُّ.

وَكانَ يَقُومُ عَلَى خِدْمَةِ الْمائِدَةِ سِرْبٌ رَائِعُ الْجَمالِ مِنْ غِزْلانِ الْغابَةِ فِي مَهارَةٍ فائِقَةٍ، يُبادِرُ إلَى خِدْمَةِ «الشَّقْراءِ»، وَيُسْرِعُ إلَى تَلْبِيَةِ إشارَتِها. وَقَدِ احْتَوَتِ الْمائِدَةُ — إلَى ذَلِكَ — أَشْهَى ما يَشْتَهِي الآكِلُونَ مِنْ لَحْمٍ وَطَيْرٍ وَسَمَكٍ وَفَطائِرَ وَحَلْوَى وَفالُوذَجٍ وَلَطائِفَ مَحْشُوَّةٍ بِالْجَوْزِ واللَّوْزِ والسُّكَّرِ الْماذِيِّ، وَما إلَى ذَلِكَ مِنْ لَذائِذِ الْأَطْعِمَةِ الْمُرْتَقِياتِ.

وَكانَتِ «الشَّقْراءُ» جائِعَةً؛ فَأَكَلَتْ مَعَ «أَمِيرَةِ الْغِزْلانِ» وَوَلَدِها ما شاءَتْ مِنْ هَذِهِ الْمائِدَةِ الدَّسِمَةِ! حَتَّى إذا فَرَغَتْ مِنْ تَناوُلِ الْعَشاءِ صَحِبَتْها «أُمُّ عَزَّةَ» و«أَبُو خِداشٍ» إلَى حَدِيقَةِ الْقَصْرِ. فَرَأَتْ فِيها — مِنَ الْفاكِهَةِ النَّاضِجَةِ، والْمُتَنَزَّهاتِ الْبَدِيعَةِ — ما لا عَهْدَ لَها بِمِثْلِهِ فِي قَصْرِ أَبِيها وَحَدِيقَتِهِ. فَلَمَّا أَتَمَّتْ نُزْهَتَها، عادَتْ مَعَ صَدِيقَيْها الْجَدِيدَيْنِ.

وَكانَ التَّعَبُ قَدِ اسْتَوْلَى عَلَيْها — حِينَئِذٍ — فَأَشارَتْ عَلَيْها أَمِيرَةُ الْغِزْلانِ أَنْ تَذْهَبَ إلَى مَخْدَعِها لِتَنامَ. فَلَبَّتِ اقْتِراحَها مَسْرُورَةً.

وَما دَخَلَتْ حُجْرَةَ نَوْمِها حَتَّى وَجَدَتْ فِيها غَزالَتَيْنِ — مِنْ غِزْلانِ الْغابَةِ — تَستَقْبِلانِها مُتَأَهِّبَتَيْنِ لِخِدْمَتِها. وَقَدْ أَسْرَعَتا إِلَى ثِيابِها فَنَزَعَتاها — فِي مَهارَةٍ — ثُمَّ سَهِرَتا إِلَى جِوارِ سَرِيرِها، تَرْعَيانِها وَتُلَبِّيانِ كُلَّ ما تَأْمُرُهُما بِهِ.

ثُمَّ أَغْمَضَتِ «الشَّقْراءُ» عَيْنَيْها دُونَ أَنْ تُلْهِيَها تِلْكَ الْمَناظِرُ الرَّائِعَةُ وَالْأَمْتِعَةُ النَّفِيسَةُ عَنِ التَّفْكِيرِ فِي أَبِيها، مُتَحَسِّرَةً مُتَأَلِّمَةً تَرْجُو لِقاءَهُ.

الفصل السادس

(١) الصَّحْوَةُ الثَّانِيَةُ

وَلَمْ تَلْبَثِ «الشَّقْراءُ» أَنِ اسْتَسْلَمَتْ لِنَوْمٍ عَمِيقٍ. فَلَمَّا اسْتَيْقَظَتْ وَجَدَتْ نَفْسَها غَيْرَ ما كانَتْ بِالْأَمْسِ. لَقَدْ أَصْبَحَتْ خَلْقًا آخَرَ. فَقَدْ نَما جِسْمُها وَعَقْلُها نُمُوًّا عَجِيبًا، واتَّسَعَتْ آفاقُ تَفْكِيرِها، وأَلَمَّتْ بِطَرائِفَ مِنَ الْعُلومِ والْفُنُونِ، عَرَفَتْها — فِيما قَرَأَتْهُ مِنَ الْكُتُبِ، وَلُقِّنَتْهُ مِنَ الدُّرُوسِ — وَهِيَ نائِمَةٌ.

وَلَمَّا اسْتَعادَتْ أَحْلامَها اللَّذِيذَةَ ذَكَرَتْ أَنَّها قَضَتْ وَقْتَ نَوْمِها كُلَّهُ فِي الْقراءَةِ والْكِتابَةِ والرَّسْمِ ودَرْسِ الْمُوسِيقَى والْعَزْفِ عَلَى «الْبِيانِ» والنَّايِ والْعُودِ وَما إِلَيْها.

وَلَعَلَّ أَعْجَبَ ما عَجِبَتْ مِنْهُ أَنَّها لَمْ تَنْسَ مِمَّا تَعَلَّمَتْهُ فِي نَوْمِها شَيْئًا. وَأَرادَتْ أَنْ تُفَرِّجَ عَنْ نَفْسِها قَلِيلًا، فَنَهَضَتْ مِنْ سَرِيرِها.

وَما رَأَتْ صُورَتَها فِي الْمِرْآةِ حَتَّى أَبْصَرَتْ أَنَّها قَدْ أَصْبَحَتْ أَكْبَرَ حَجْمًا، وَأَرْشَقَ جِسْمًا، وَقَدْ زادَتْ حُسْنًا وَبَهاءً، وَتَأَلَّقَتْ عَيْناها الزَّرْقاوَانِ، وَتَوَرَّدَتْ بَشَرَتُها النَّاصِعَةُ، وَطالَ شَعْرُها الذَّهَبِيُّ الْجَمِيلُ، واسْتَرْسَلَ عَلَى قَوامِها الدَّقِيقِ حَتَّى بَلَغَ قَدَمَيْها. فَتَحَيَّرَتِ «الشَّقْراءُ» مِمَّا رَأَتْ، وَظَنَّتْ أَنَّها لا تَزالُ نائِمَةً، سابِحَةً فِي أَحْلامِها اللَّذِيذَةِ هائِمَةً. فَلَمْ تَكَدْ تُصَدِّقُ عَيْنَيْها فِيمَا تَرَيانِ، وَأَسْرَعَتْ إِلَى مَلابِسِها فارْتَدَتْها، ثُمَّ ذَهَبَتْ — عَلَى الْفَوْرِ — إِلَى أَمِيرَةِ الْغِزْلانِ.



وَما رَأَتْها حَتَّى سَأَلَتْها مُتَعَجِّبَةً: «أُمَّ عَزَّةَ: سَيدَتِي أُمَّ عَزَّةَ! هَأَنَذِي ضارِعَةٌ إِلَيْكِ مُتَوَسِّلَةٌ — يا أَمِيرَةَ الْغِزْلانِ — أَنْ تُفَسِّري لِي سِرَّ هَذا التَّحَوُّلِ الَّذِي أَراهُ وَأُحِسُّهُ فِي نَفْسِي. أَواهِمَةٌ أَنا؟ أَمْ كَبِرْتُ حَقًّا؟»

فَقالَتْ «أُمُّ عَزَّةَ»: «لا رَيْبَ أَنَّ سِنَّكِ قَدْ نَمَتْ، فَأَصْبَحْتِ الآنَ فِي الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِكِ؛ لأَنَّ رَقْدَتَكِ اسْتَمَرَّتْ سَبْعَ سَنَواتٍ كامِلَةً. وَقَدْ أَصْبَحْتِ ضِعْفَ ما كُنْتِ جِسْمًا وَعُمْرًا. فَقَدِ اجْتَمَعَ رَأْيُ وَلَدِي وَرَأْيِي عَلَى أَنْ نَرْفَعَ عَنْكِ عَناءَ ما تَتَطَلَّبُهُ الدِّراساتُ الْأَوَّلِيَّةُ مِنْ جُهْدٍ، وَرَأَيْنا أَنْ تَرْقُدِي سَبْعَ سَنَواتٍ كامِلَةً، نُلَقِّنُكِ — فِي أَثْنائِها — كُلَّ ما تَحْتاجِينَ إِلَيْهِ مِنْ فُنُونِ الثَّقافَةِ وَالْعِلْمِ. فَلَمْ نَدَّخِرْ وُسْعًا فِي تَعْلِيمِكِ وَأَنْتِ نائِمَةٌ؛ فَعَرَفْتِ ما لَمْ تَكُونِي تَعْرِفِينَ، وَأَصْبَحْتِ الآنَ تَقْرَئِينَ وَتَكْتُبِينَ، وَقَدْ كُنْتِ — قَبْلَ أَنْ تَنامِي — لا تَعْرِفِينَ مِنَ الْقِراءَةِ والْكِتابَةِ حَرْفًا واحِدًا.

ما بالِي أَلْمَحُ فِي عَيْنَيْكِ أَنَّكِ تَشُكِّينَ؟ لَعَلَّكِ غَيْرُ واثِقَةٍ مِمَّا تَسْمَعِينَ. فَهَلُمِّي إِلَى الْمَكْتَبَةِ لِتَعْلَمِي عِلْمَ الْيَقِينِ.»

(٢) ثَقافَةُ «الشَّقْراءِ»

فَتَبِعَتْها «الشَّقْراءُ» إلَى قاعَةِ الدَّرْسِ. وَما جَلَسَتْ إلَى «الْبِيانِ» حَتَّى رَأَتْ أَنَّها تُجِيدُ الْعَزْفَ، كَأَحْسَنِ ما تُجِيدُهُ أَمْهَرُ الْعازِفاتِ. وَأَمْسَكَتِ «النَّايَ» فَأَتَتْ بِأَعْذَبِ الْأَنْغامِ. ثُمَّ أَمْسَكَتِ الْعُودَ، فَغَنَّتْ ما شاءَتْ مِنْ بَدائِعِ الْأَلْحانِ. ثُمَّ أَمْسَكَتِ الْمِرْقَمَ، فَرَسَمَتْ أَلْواحًا فَنِّيَّةً رائِعَةً. وَرَأَتْ أَنَّها تُصَوِّرُ ما تَشاءُ، فِي يُسْرٍ وَسُهُولةٍ عَجِيبَتَيْنِ، وَبَراعَةٍ وَمَهارَةٍ فائِقَتَيْنِ. ثُمَّ أَمْسَكَتْ بِالْقَلَمِ، وَأَجْرَتْهُ عَلَى الْقِرْطاسِ، فَإذا هِيَ ماهِرَةٌ فِي الْكِتابَةِ؛ مَهارَتَها فِي الرَّسْمِ والْعَزْفِ والْغِناءِ. ثُمَ نَظَرَتْ فِيما حَوَتْهُ الْمَكْتَبَةُ مِنْ نَفائِسِ الْكُتَبِ.

وَما فَتَحَتْها حتَّى ذَكَرَتْ أَنَها قَرَأَتْ أَكْثَرَها، إن لَمْ تَكُنْ قَرَأَتْها جَمِيعًا. فامْتَزَجَتْ فِي نَفْسِها الدَّهْشَةُ بِالسُّرُورِ، وَأَسْرَعَتْ إلَى أَمِيرَةِ الْغِزْلانِ وَوَلَدِها، فانْهالَتْ عَلَيْهِما لَثْمًا وَتَقْبِيلًا، وَأَمْطَرَتْهُما ثَناءً وَشُكْرًا. وَلَمْ تَدَّخِرْ وُسْعًا فِي التَّعْبِيرِ لَهُما عَنْ فَرَحِها وَعِرْفانِها بِجَمِيلِهِما، وَقالَتْ لَهُما فِيما قالَتْ: «أَيُّ جَمِيلٍ طَوَّقْتُما بِهِ عُنُقِي، أَيُها الصَّدِيقانِ الْكَرِيمانِ! شَدَّ ما أَحْسَنْتُما إلَيَّ.»

(٣) فِي الْمِرْآةِ

فَشَكَرَتْ لَها «أُمُّ عَزَّةَ» ثَناءَها وَتَلَطُّفَها. وَأَقْبَلَ عَلَيْها «أَبُو خِداشٍ» يَلْحَسُ يَدَيْها فِي خِفَّةٍ وَرَشاقَةٍ. فاسْتَأْنَفَتِ «الشَّقْراءُ» حَدِيثَها قائِلَةً: «أَرْجُو أَنْ تُضِيفا إلَى صَنِيعِكُما فَضْلًا آخَرَ: فَتُخْبِرانِي: كَيْفَ حالُ أَبِي؟ أَما زالَ يَبْكِي لِفِراقِي؟ أَمْ خَفَّفَ النِّسْيانُ بَعْضَ ما يَلْقاهُ مِنْ حُزْنٍ؟»

فَقالَتْ «أُمُّ عَزَّةَ»: «هَذِهِ رَغْبَةُ حَقٍّ، وَلَا بُدَّ مِنْ إجابَتِكِ إلَيْها. هاكِ الْمِرْآةَ، فانْظُرِي فِيها، يا «شَقْراءُ»، تَرَيْ ما وَقَعَ لِأَبِيكِ؛ مُنْذُ فارَقْتِهِ إلَى الآنَ.»

فَرَفَعَتِ «الشَّقْراءُ» عَيْنَيْها إلَى الْمِرْآةِ، فَرَأَتْ فِيها حُجْرَةَ أَبِيها: «حَبِّ الرُّمَّانِ»، والحَيْرَةُ مُسْتَوْلِيَةٌ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَمْشِي فِي أَرْجاءِها مُضْطَرِبًا ثائِرَ النَّفْسِ، كَأَنَما يَتَرَقَّبُ أَحَدًا، وَقَدْ نَفِدَ صَبْرُهُ لِطُولِ الانْتِظارِ. ثُمَ رَأَتْ زَوْجَهُ «سُمَيَّةَ» قادِمَةً عَلَيْهِ، وَهِيَ تَقُولُ مُتَعَجِّبَةً: «إنَّ الشَّقْراءَ» قَدْ أَبَتْ — بِرَغْمِ مُعارَضَةِ «شَرْهانَ» — إلَّا أَنْ تَسُوقَ بِنَفْسِها الْعَرَبَةَ، وَتُوَجِّهَ النَّعامَتَيْنِ إلَى غابَةِ الزَّنْبَقِ. فَلَمَّا بَلَغَتْها أَسْرَعَتْ إلَى سُورِ الْغابَةِ فاقْتَحَمَتْهُ فَجْأَةً، وَلَمْ تُبالِ

تَحْذِيرَ «شَرْهانَ». وَلَقَدِ اسْتَوْلَى الْفَزَعُ والرُّعْبُ عَلَى «شَرْهانَ» الْمِسْكِينِ، حَتَّى خَشِيتُ عَلَيْهِ أَنْ يُسْلِمَهُ الْخَوْفُ إِلَى الْجُنُونِ أَو الْمَوْتِ؛ فَأَرْسَلْتُهُ إِلَى أَهْلِهِ لِأُخَفِّفَ عَنْهُ هَوْلَ ما يَشْعُرُ بِهِ.»

وَرَأَتِ «الشَّقْراءُ» فِي الْمِرْآةِ كَيْفَ وَقَعَ الْخَبَرُ عَلَى قَلْبِ أَبِيها وُقُوعَ الصَّاعِقَةِ. وَكَيْفَ اشْتَدَّ الْيَأْسُ بِهِ حَينَ سَمِعَ هَذا النَّبأَ، فَحاوَلَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى غابَةِ الزَّنْبَقِ لِيَبْحَثَ عَنْها: وَقَدْ كادَ يَفْعَلُ لَوْلا أَنَّهُمْ حالُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ هَذِهِ الْمُخَاطَرَةِ بِالْقُوَّةِ. وَرَأَتْ كَيْفَ اشْتَدَّ بِهِ الْأَلَمُ فَلَمْ يَكُفَّ عَنْ مُناداتِها. فَلَمَّا نامَ رَأَى بِنْتَهُ فِي عالَمِ الْأَحْلامِ جالِسَةً فِي قَصْرِ «أُمِّ عَزَّةَ» و«أَبِي خِداشٍ»، وَسَمِعَ مِنْهُما ما أَثْلَجَ صَدْرَهُ، إِذْ تَعَهَّدا لَهُ أَنْ يُعِيدا إِلَيْهِ طِفْلَتَهُ يَوْمًا ما، وَعَرَفَ أَنَّها لَمْ تَلْقَ فِي ضِيافَتِهِما غَيْرَ التَّكْرِيمِ والْعِنايَةِ، والْحَفاوَةِ والرِّعايَةِ.

وَما بَلَغَتِ الشَّقْراءُ هَذا الْمَنْظَرَ، حَتَّى صَدِئَتِ الْمِرْآةُ، واخْتَفَى عَنْ ناظِرِها كُلُّ شَيْءٍ. ثُمَّ عادَتِ الْمِرْآةُ مِنْ جَدِيدٍ مَجْلُوَّةً مَصْقُولَةً كَما كانَتْ. وَظَهَرَ أَبُوها مَرَّةً أُخْرَى وَقَدْ أَدْرَكَتْه الشَّيْخُوخَةُ واشْتَعَلَ الرَّأْسُ مِنْهُ شَيْبًا، فَجَلَسَ حَزِينًا كَئِيبًا، وَقَدْ أَمْسَكَ فِي يَدِهِ بِصُورَةٍ صَغِيرَةٍ لِلْأَمِيرَةِ «الشَّقْراءِ»، وَظَلَّ يَنْظُرُ إِلَيْها زَمَنًا طَوِيلًا، ثُمَّ تَغْمُرُ عَيْنَيْهِ الدُّمُوعُ فَيَتْرُكُها قَلِيلًا، ثُمَّ يَعُودُ إِلَيْها لِيَمْلَأَ ناظِرَيْهِ مِنْها. وَقَدْ حَزِنَتِ الْأَمِيرَةُ حِينَ رَأَتْهُ مُنْفَرِدًا لا يُؤْنِسُهُ أَحَدٌ.

وَدَهِشَتْ لِأَنَّها لَمْ تَرَ «سُمَيَّةَ» وَلا بِنْتَها «السَّمْراءَ» إِلَى جانِبِهِ. فَأَخْبَرَتْها الْمِرْآةُ أَنَّ المَلِكَ «حَبَّ الرُّمَّانِ» غَضِبَ عَلَى «سُمَيَّةَ»؛ فَبَعَثَ بِها إِلَى أَبِيها الْمَلِكِ: «نَوْفَلٍ». وَكانَ سَبَبُ غَضَبِهِ عَلَيْها أَنَّها تَلَقَّتْ نَبأَ فِقْدانِ «الشَّقْراءِ» بِغَيْرِ اكْتِراثٍ، بَلْ هِيَ لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَكْتُمَ فَرَحَها بِذَلِكَ وَشَماتَتَها. فَأَمَرَ الْمَلِكُ «نَوْفَلٌ» بِسَجْنِها فِي بُرْجِ الْعَذابِ. فَتَعاوَنَتْ عَلَيْها الْوَحْدَةُ والضَّجَرُ، وَتَمَلَّكَها الْغَيْظُ والْغَضَبُ، فانْتابَها الْجُنُونُ. وَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ لَقِيَتْ حَتْفَها، فَماتَتْ غَيْرَ مَأْسُوفٍ عَلَيْها مِنْ أَحَدٍ.

أَمَّا بِنْتُها «السَّمْراءُ» فَقَدْ زادَتْ حَماقَتُها وَشَراسَتُها — يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ — حَتَّى أَصْبَحَتْ لا تُطاقُ. وقَدْ زُوِّجَتْ فِي الْعامِ الْماضِي بالْأَمِيرِ «سَلِيمٍ». وَهُوَ أَمِيرٌ حازِمٌ أَلْمَعِيٌّ بَعِيدُ النَّظَرِ، واسِعُ الْخِبْرَةِ بِالطَّبائِعِ الْإِنْسانِيَّةِ. فَلَمْ يُقَصِّرْ فِي تَأْدِيبِ «السَّمْراءِ» وَزَجْرِها والْقَسْوَةِ عَلَيْها. فاضْطَرَّها ذَلِكَ إِلَى أَنْ تُخَفِّفَ مِنْ قَسْوَتِها، وَتُلِينَ مِنْ حِدَّتِها وشَراسَتِها.

وَهَكَذا أَفْلَحَ «سَلِيمٌ» فِي تَرْوِيضِ نَفْسِها الْجَامِحَةِ، وَتَحْسِينِ طَبْعِها النَّكِدِ. فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ أَصْبَحَتْ مِثالًا لِلْوَداعَةِ واللُّطْفِ وَكَرَمِ الْخِلالِ.

فَلَمَّا رَأَتِ «الشَّقْراءُ» ذَلِكَ شَكَرَتْ لِـ«أُمِّ عَزَّةَ» ما هَيَّأَتْهُ لَها مِنْ تَعَرُّفِ ما جَهِلَتْهُ مِنَ الْحَقائِقِ.

(٤) صَمْتُ «الشَّقْراءِ»

وَمَرَّتْ أَيَّامٌ أُخْرَى، واشْتَدَّ الْقَلَقُ بِـ«الشَّقْراءِ» وَأَضْجَرَها أَنْ تَقْضِيَ أَكْثَرَ أَوقاتِها صامِتَةً مُسْتَسْلِمَةً لِهُمُومِها وَأَحْزانِها. وَلَمْ تَجِدْ فِي كُلٍّ مَنْ حَوْلَها أَحَدًا قادِرًا عَلَى مُحادَثَتِها غَيْرَ أَمِيرَةِ الْغِزْلانِ، وَهِيَ لا تَظْفَرُ بِلِقائِها إِلَّا فِي أَوْقاتِ الدَّرْسِ وتَناوُلِ الطَّعامِ. أَمَّا «أَبُو خِداشٍ» فَلَمْ يَكُنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَرُدَّ عَلَى سُؤالِها وَيُفْضِيَ إِلَيْها بِجَوابِ ما تُرِيد بِأَكْثَرَ مِنَ الْإِشَاراتِ والْمُواءِ والنَّظَراتِ. وَلَمْ تَكُنْ غِزْلانُ الْغابَةِ الَّتِي تَخْدُمُ «الشَّقْراءَ» — بِمَهارَةٍ وَدِرايَةٍ — بِقادِراتٍ عَلَى الْكَلامِ أَيْضًا.

وَلَمْ يَكُنْ يُؤْذَنُ «لِلشَّقْراءِ» فِي التَّجْوالِ والتَّنَزُّهِ إِلَّا مَعَ «أَبِي خِداشٍ» الَّذِي كانَ لا يُقَصِّرُ فِي رِعايَتِها واصْطِحابِها إِلَى أَجْمَلِ الْمُتَنَزَّهاتِ، وَتَخَيَّرِ أَبْدَعِ ما تَحْوِيهِ مِنَ الْأَزْهارِ لَها.

(٥) نَصِيحَةُ الْوَعِلَةِ

وَكانَتْ أَمِيرَةُ الْغِزْلانِ قَدْ أَخَذَتْ عَلَى «الشَّقْراءِ» عهْدًا أَلَّا تَتَجاوَزَ بابَ الْحَدِيقَةِ، وحَذَّرَتْها أَنْ تَذْهَبَ إِلَى الْغابَةِ.

فَلَمَّا سَأَلَتْها «الشَّقْراءُ» — أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ — عَنْ سَبَبِ هَذا الْمَنْعِ، لَمْ تَسْمَعْ مِنْها جَوابًا غَيْرَ تَنَهُّداتِ الْحَسْرَةِ والْأَلَمِ، مَشْفُوعَةً بِقَوْلِها: «إِنَّ الْغابَةَ — يا «شَقْراءُ» — جالِبَةُ الْأَلَمِ والشَّقاءِ. فَحَذارِ أَنْ تُحاوِلِي أَوْ تُفَكِّرِي فِي مُخالَفَةِ هذِهِ النَّصِيحَةِ.»

وَكانَتِ «الشَّقْراءُ» تَصْعَدُ — فِي بَعْضِ الْأَحْيانِ — إِلَى جَناحٍ مُنْفَرِدٍ يُشْرِفُ عَلَى الْغابَةِ، فَتَبْدُو لِعَيْنَيْها أَشْجارُها الْبَدِيعَةُ، وَأَزْهارُها الْجَمِيلَةُ، وَتَلُوحُ لَها آلافُ الطُّيُورِ مُحَلِّقَةً فِي طَيَرانِها، مُغَرِّدَةً شادِيَةً، كَأَنَّما تَهُمُّ أَنْ تُنادِيَها.

وَكانَتْ كُلَّما دارَتْ بِذِهْنِها مِثْلُ هَذِهِ الْوَساوِسِ والْأَفْكارِ، قَطَعَها عَلَيْها «أَبُو خِداشٍ»، وَلَمْ يَدَع لَها فُرْصَةً لِلتَّمادِي فِيها، وَجَذَبَها مِنْ ثَوْبِها، فَلَمْ تَمْلِكْ أَنْ تُخالِفَهُ.

الفصل السابع

(١) حَدِيثُ «أُمِّ عَزَّةَ»

وَمَرَّتْ عَلَى «الشَّقْراءِ» سِتَّةُ أَشْهُرٍ — أَوْ قَرِيبٌ — قَضَتْها فِى قَصْرِ الْغِزْلانِ، بَعْدَ أَنْ أَفاقَتْ مِنْ رُقادِها الطَّوِيلِ الَّذِي احْتَواها سَبْعَ سَنَواتٍ كامِلَةً. وَطالَ بِها الْوَقْتُ، أَوْ — عَلَى الْأَصَحِّ — بَدا لَها الْوَقْتُ طَوِيلًا، وَخُيِّلَ إِلَيْها أَنَّ ساعاتِ الْيَوْمِ قَدْ أَصْبَحَتْ أَطْوَلَ مِمَّا أَلِفَتْهُ. وَظَلَّتْ تُعاوِدُها ذِكْرَى أَبِيها فِي أَكْثَرِ الْأَوْقاتِ؛ فَتَمْلأُ قَلْبَها حُزْنًا، وَتُفْعِمُ نَفْسَها أَلَمًا. وَلَمْ يَخْفَ عَلَى أَمِيرَةِ الْغِزْلانِ وَوَلَدِها شَيْءٌ مِمَّا كانَ يَتَرَدَّدُ فِي خاطِرِ «الشَّقْراءِ» وَيَهْجِسُ فِي قَلْبِها. وَلَمْ يَكُنْ «أَبُو خِداشٍ» وَأُمُّهُ يَمْلِكانِ لَها أَكْثَرَ مِمَّا فَعَلَا. وَآثَرَتِ «الشَّقْراءُ» السُّكاتَ، فَكَتَمَتْ شَكْواها، وَلَمْ تَبُحْ بِها، خَشْيَةَ أَنْ تُسِيءَ إِلَى ضِيافَةِ «أُمِّ عَزَّةَ» الَّتِي لَمْ تُقَصِّرْ فِي إِكْرامِها.

عَلَى أَنَّ «أُمَّ عَزَّةَ» فاجَأَتْها قائِلَةً: «سَتَرَيْنَ والِدَكِ — يا «شَقْراءُ» — مَتَى بَلَغْتِ الْخامِسَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِكِ، عَلَى أَنْ تَحْتَفِظِي بِما عَرَفْناهُ عَنْكِ مِنْ مَزايا الصَّبْرِ والتَّعَقُّلِ والاتِّزانِ. وَلَيْتَكِ تَأْخُذِينَ بِنَصِيحَتِي؛ فَلا تَشْغَلِي نَفْسَكِ بِالْمُسْتَقْبَلِ. وَلَوْ عَلِمْتِ — يا «شَقْراءُ» — أَنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ أَوانًا، لَما حاوَلْتِ أَنْ تَتَعَجَّلِي مُفارَقَتَنا قَبْلَ أَنْ يَحِينَ الْوَقْتُ.»

(٢) حَدِيثُ الْبَبَّغاءِ

وَفِي صَباحِ يَوْمٍ جَلَسَتِ «الشَّقْراءُ» مَهْمُومَةً مُنْفَرِدَةً بِنَفْسِها، وَهِيَ تُفَكِّرُ فِي حَياتِها الْجامِدَةِ. ثُمَّ انْتَبَهَتْ مِنْ تَفْكِيرِها عَلَى صَوْتِ طَرْقاتٍ ثَلاثٍ خَفِيفَةٍ عَلَى نافِذَتِها. وَحانَتْ مِنْها الْتِفاتَةٌ، فَرَأَتْ بَبَّغاءَ خَضْراءَ جَمِيلَةً، بُرْتُقالِيَّةَ الْعُنُقِ والصَّدْرِ.



وَما رَأَتْ هَذا الطَّائِرَ الْجَدِيدَ الْمَجْهُولَ حَتَّى دَهِشَتْ، وَخَفَّتْ إِلَى لِقائِهِ، وَأَسْرَعَتْ إِلَى النَّافِذَةِ فَفَتَحَتْها لَهُ. واشْتَدَّتْ دَهْشَتُها حِينَ سمِعَتِ الْبَبَّغاءَ تَتَكَلَّمُ وَتُخاطِبُها بِصَوْتٍ خافِتٍ رَقِيقٍ: «عِمِي صَباحًا، يا «شَقْراءُ». إِنِّي أَعْرِفُ أَنَّكِ تَتَضَجَّرِينَ وَتَتَأَلَّمِينَ أَحْيانًا حِينَ لا تَظْفَرِينَ بِلِقاءِ مَنْ تَتَحَدَّثِينَ إِلَيْهِ. وَهَأَنَذي جِئْتُ إِلَيْكِ لِأُونِسَكِ بِالْحدِيثِ، وَأُزِيلَ وَحْشَتَكِ. وَلَسْتُ أُرِيدُ — عَلَى ذَلِكَ — جَزاءً أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تُعاهِدِينِي عَلَى كِتْمانِ سِرِّي، فَلا تَبُوحِي بِهِ إِلَى أَمِيرَةِ الْغِزْلانِ، وَلا تُخْبِرِيها بِزِيارَتِي، وَإِلَّا قَطَعَتْ رَأْسِي فِي الْحالِ.»

فَقالَتِ «الشَّقْراءُ»: «وَلِماذا تَقْطَعُ رَأْسَكِ أَيَّتُها الْبَبَّغاءُ الْجَمِيلَةُ؟ إنَّها كَرِيمَةٌ عادِلَةٌ، مُحْسِنَةٌ فاضِلَةٌ، وَهِيَ لا تُسِيءُ إلَى أَحَدٍ، وَلا تَكْرَهُ غَيْرَ الثُّقَلاءِ والْحَمْقَى والْمَجانِينِ.»

فَقالَتْ لَها الْبَبَّغاءُ: «إذا لَمْ تَعِدِينِي — يا «شَقْراءُ» — بِكِتْمانِ أَمْرِي والاحْتِفاظِ بِسِرِّي، عَنْ أَمِيرَةِ الغِزْلانِ، فالْوَداعَ مُنْذُ الآنَ، وِلَنْ تَرَيْ وَجْهِيَ بَعْدَ ذَلِكِ أَبَدًا.»

فَقالَتِ «الشَّقْراءُ»: «لَكِ عَلَيَّ أَنْ أَكْتُمَ حَدِيثَكِ، وَلا أَبُوحَ لِأَحَدٍ بِزِيارَتِكِ، طاعَةً لِأَمْرِكِ، وَنُزُولًا عَلَى إرادَتِكِ، وتَحْقِيقًا لِرَغْبَتِكِ. فَهاتِي ما عِنْدَكِ مِنَ الْحَدِيثِ — أَيَّتُها الْبَبَّغاءُ الْجَمِيلَةُ — لَعَلَّ فِي حَدِيثِكِ لِي بَعْضَ السَّلْوَى والْعَزاءِ.»

وَطَفِقَتِ الْبَبَّغاءُ تَتَحَبَّبُ إلَيْها، وَتَفْتَنُّ فِي إظْهارِ شَوْقِها إلَى لِقائِها، وَإعْجابِها بِما وَهَبَها اللهُ مِنْ فَضائِلَ، ومَا مَيَّزَها بِهِ مِنْ ذَكاءٍ. فَسُرَّتِ «الشَّقْراءُ» مِمَّا سَمِعَتْ مِنْ عِباراتِ الْمَدِيحِ والتَّمْلِيقِ. ثُمَ طارَتِ الْبَبَّغاءُ — بَعْدَ أَنْ جَلَسَتْ مَعَها ساعَةً — عَلَى أَنْ تَعُودَ إلَيْها فِي الْغَدِ. وَقَدْ بَرَّتِ الْبَبَّغاءُ بِوَعْدِها، فَعادَتْ — عِدَّةَ أَيَّامٍ مُتَواصِلَةٍ — وَهِيَ لا تُقَصِّرُ فِي التَّوَدُّدِ إلَيْها وَتَسْلِيَتِها، وَرِوايَةِ بَدائِعِ الْقِصَصِ وَطَرائِفِ الْأَحادِيثِ.

وَفِي صَباحِ يَوْمٍ، طَرَقَتِ الْبَبَّغاءُ النَّافِذَةَ، وَهِيَ تَقُولُ فِي لَهْفَةٍ شَدِيدَةٍ: «شَقْراءُ! شَقْراءُ! افْتَحِي يا شَقْراءُ. فَقَدْ جِئْتُ أَحْمِلُ إلَيْكِ نَبَأً عَنْ أَبِيكِ.»

فَفَتَحَتِ «الشَّقْراءُ» النَّافِذَةَ، وَقالَتْ لِلْبَبَّغاءِ. «أَحَقِيقَةً — يا بَبَّغائِي — أَنَّكِ آتِيَةٌ لِي بِأَنْباءٍ عَنْ أَبِي؟ خَبِّرِينِي ماذا يَصْنَعُ الآنَ؟ وَكَيْفَ هُوَ؟»

فَقالَتِ الْبَبَّغاءُ: «إنَّ أَباكِ فِي صِحَّةٍ جَيِّدَةٍ، يا شَقْراءُ، وَلَكِنَّهُ ما يَزالُ يَبْكِيكِ، وَلَمْ يَكُفَّ عَنِ الْحُزْنِ لَحْظَةً واحِدَةً، مُنْذُ فارَقْتِهِ إلَى الآنَ. وَقَدْ وَعَدْتُهُ — وَلَنْ أُخْلِفَ وَعْدِي مَعَهُ — بِأَنْ أَبْذُلَ ما أَمْلِكُ مِنْ نُفُوذٍ ضَئِيلٍ، وَسُلْطانٍ قَلِيلٍ، لِأُنْقِذَكِ مِنْ هَذا السِّجْنِ الطَّوِيلِ. ولَكِنْ لَيْسَ فِي وُسْعِي أَنْ أَقُومَ بِهَذا الْمُهِمِّ كُلِّهِ وَحْدِي. وَلا بُدَّ لِتَحْقِيقِهِ أَنْ تَبْذُلِي شَيْئًا مِنْ مَعُونَتِكِ.»

فَقالَتِ «الشَّقْراءُ»: «لَوْ عَرَفْتِ ما بَذَلَتْهُ «أُمُّ عَزَّةَ» وَوَلَدُها فِي تَثْقِيفِي وَتَعْلِيمِي، والسَّهَرِ عَلَى راحَتِي، لَضاعَفْتِ مِنْ شُكْرِهِما، وَلَمْ تُفَكِّرِي — لَحْظَةً واحِدَةً — فِي اتِّهامِهِما. وَلَيْسَ أَشْهَى إلَى نَفْسَيْهِما، وَلا أَبْهَجَ لِقَلْبَيْهِما، مِنْ أَنْ تُتاحَ لَهُما الْوَسِيلَةُ لِيُعِيدانِي إلَى أَبِي فِي أَسْرَعِ وَقْتٍ. أَلا تَقْبَلِينَ أَنْ أُقَدِّمَكِ لَهُما لِتَنْعَمِي بِمَوَدَّتِهِما؟»

فَقالَتْ لَها الْبَبَّغاءُ، بِصَوْتِها الْمُنْخَفِضِ: «يا لَكِ مِنْ ساذَجَةٍ طَيِّبَةِ الْقَلْبِ. إنَّكِ لا تَعْرِفِينَ — يا شَقْراءُ — حَقِيقَةَ «أُمِّ عَزَّةَ» و«أَبِي خِداشٍ». وَلا تَسْتَطِيعِينَ أَنْ تُمَثِّلِي لِنَفْسِكِ مِقْدارَ ما يُضْمِرانِهِ لِي مِنْ كَراهِيَةٍ وَبَغْضاءَ وَحِقْدٍ. لِأَنَّهُما يَعْلَمانِ أَنَّنِي — عَلَى ضَعْفِي — طالَما أَنْقَذْتُ الْكَثِيرَ مِنْ صَرْعاهُما، وَفَكَكْتُ الْكَثِيرَ مِنْ أَسْراهُما.

(٣) فَكُّ الطِّلَّسْمِ

واعْلَمِي — يا «شَقْراءُ» — أَنَّكِ لَنْ تَخْرُجِي مِنْ هَذِهِ الْغابَةِ، وَلَنْ تَظْفَرِي بِلِقاءِ أَبِيكِ أَبَدًا، إذا لَمْ تَفُكِّي بِنَفْسِكِ الطِّلَّسْمَ الَّذي يُقَيِّدُكِ هُنا.»

فَقالَتِ «الشَّقْراءُ»: «أَيَّ طِلَّسْمٍ تَعْنِينَ؟ إنِّي لا أَفْهَمُ شَيئًا مِمَّا تَقُولِينَ. ومَا أَدْرِي أَيَّةُ فائِدَةٍ تَعُودُ عَلَيْهِما مِنْ حَجْزِي فِي هَذا الْمَكانِ وَبَقائِي إلَى جِوارِهِما؟»

فَقالَتِ الْبَبَّغاءُ: «إنَّما يَحْجُزانِكِ لِيَتَسَلَّيا بِكِ فِي عُزْلَتِهِما. أَمَّا الطِّلَّسْمُ الَّذِي حَدَّثْتُكِ عَنْهُ فَهُوَ وَرْدَةٌ فِي الْغابَةِ، لا يَقْطِفُها إلَّا أَنْتِ وَحْدَكِ دُونَ غَيْرِكِ، وَلا تَكادِينَ تَقْطِفِينَها حَتَّى تَخْلُصِي مِنْ سِجْنِكِ الْأَبَدِيِّ، وَتَعُودِي إلَى أَبِيكِ سالِمَةً، مُمَتَّعَةً بِلِقائِهِ غانِمَةً.»

فَقالَتِ «الشَّقْراءُ» لِلْبَبَّغاءِ: «أَيَّ وَرْدَةٍ تَعْنِينَ، فَما أَكْثَرَ الْوُرُودَ؟»

فَقالَتِ الْبَبَّغاءُ: «ذَلِكِ ما أُحَدِّثُكِ بِهِ فِي غَيْرِ هَذا الْيَوْمِ؛ فَقَدْ حانَ مَوْعِدُ قُدُومِهِما. فَإذا شِئْتِ أَنْ تَتَعَرَّفِي قِيمَةَ نَصِيحَتِي! وَتُدْرِكِي نَفْعَ الْوَرْدِ لَكِ، فَحاوِلِي أَنْ تَطْلُبِي مِنْ «أُمِّ عَزَّةَ» وَرْدَةً واحِدَةً. والآنَ وَداعًا، يا «شَقْراءُ». وَداعًا إلَى غَدٍ.»

(٤) الزَّهْرَةُ الْخَبِيثَةُ

وَما طارَتِ الْبَبَّغاءُ حَتَّى جاءَتْ «أُمُّ عَزَّةَ» ثائِرَةً مُهْتاجَةً، وَقالَتْ لِـ«الشَّقْراءِ»: «مَعَ مَنْ كُنْتِ تَتَكَلَّمينَ؟»

فَكَتَمَتْ عَنْها «الشَّقْراءُ» حَدِيثَها مَعَ الْبَبَّغاءِ، وَبَذَلَتْ جُهْدَها لِتُوهِمَها أَنَّها لَمْ تُكَلِّمْ أَحَدًا قَطُّ.

فَقالَتْ لَها «أُمُّ عَزَّةَ»: «لَقَدْ سَمِعْتُكِ تَتَحَدَّثِينَ الآنَ!» فَقَالَتْ لَها: «كُنْتُ أُحَدِّثُ نَفْسِي مُنْذُ قَلِيلٍ.»

فَسَكَتَتْ «أُمُ عَزَّةَ» عَلى مَضَضٍ، وَبَدَتْ عَلى وَجْهِها أَماراتُ الْحُزْنِ والْأَلَمِ؛ فَلَم تَسْتَطِعْ أَنْ تَحْبِسَ دَمْعَةً سالَتْ مِنْ عَيْنَيْها.

وَكانَتِ «الشَّقْراءُ» — حينَئِذٍ — مَشْغُولَةَ الْقَلْبِ، شارِدَةَ الْفِكْرِ؛ لِأَنَّ ما حَدَّثَتْها بِهِ البَبَّغاءُ بَلْبَلَ خاطِرَها، وَشَرَّدَ ذِهْنَها، وَأَنْساها كُلَّ ما أَسْلَفَتْهُ إِلَيْها الْوَعِلَةُ وَوَلَدُها مِنْ صَنِيعٍ.

وهَكَذا عَمِيَتِ «الشَّقْراءُ» عَنِ الْحَقِّ الْواضِحِ، وَأَطاعَتْ نَصِيحَةَ الْبَبَّغاءِ. فالْتَفَتَتْ إِلَى «أُمِّ عَزَّةَ» تَسْأَلُها: «ما بالُكِ — يا مَوْلاتِي — لا تُقَدِّمِينَ لِي — فِيما تُقَدِّمِينَ مِنْ طاقاتِ الْأَزْهارِ — وَرْدَةً واحِدَةً؟»

فَدَهِشَتْ «أُمُّ عَزَّةَ»، وَلَمْ تَتَمالَكْ أَنْ صَرَخَتْ فِي وَجْهِ «الشَّقْراءِ»: «شَقْراءُ! يا شَقْراءُ! حَذارِ أَنْ تُعِيدِي هَذا السُّؤَالَ مَرَّةً أُخْرَى. حَذارِ أَنْ تُفَكِّرِي فِي هَذِهِ الزَّهْرَةِ الْخَبِيثَةِ الْمَلْعُونَةِ، الَّتِي تَخِزُ أَشْواكُها كُلَّ مَنْ يَلْمُسُها. وَحَذارِ أَنْ تُحَدِّثِينِي عَنْها حَتَّى لا تَجْلُبِي عَلى نَفْسِكِ ما لا قِبَلَ لَكِ بِهِ مِنَ النَّكَباتِ والْكَوارِثِ.»

فَلَمْ تَجْرُؤِ الْفَتاةُ عَلى أَنْ تَنْطِقَ بِحَرْفٍ واحِدٍ.

(٥) عَوْدَةُ الْبَبَّغاءِ

وَفِي صَباحِ غَدٍ بَكَرَتِ «الشَّقْراءُ» إِلَى نافِذَةِ حُجْرَتِها، وَلَمْ تَفْتَحْها حَتَّى دَخَلَتِ الْبَبَّغاءُ، وَبَدأَتْ حَدِيثَها مَعَها ساخِرَةً وَهِيَ تَقُولُ: «أَرَأَيْتِ — يا شَقْراءُ — كَيْفَ اضْطَرَبَتْ «أُمُّ عَزَّةَ» وانْزَعَجَتْ حِينَ ذَكَرْتِ لَها اسْمَ الْوَرْدَةِ؟ أَرَأَيْتِ الآنَ كَيْفَ صَدَقْتُكِ الْقَوْلَ أَمْسِ؟ لَقَدْ وَعَدْتُكِ أَنْ أَدُلَّكِ عَلى الْوَسِيلَةِ الَّتِي تَحْصُلِينَ بِها عَلى واحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْوُرُودِ الْجَمِيلَةِ. والْيَوْمَ أُحَقِّقُ لَكِ وَعْدِي، وَأُعِينُكِ عَلى تَحْقِيقِ رَغْبَتِكِ وَهِيَ — بِعَوْنِ اللهِ — هَيِّنَةٌ غَيْرُ عَسِيرَةٍ، وَلَنْ تُكَلِّفَكِ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تَخْرُجِي مِنَ الْحَدِيقَةِ، وَتَمْضِي فِي صُحْبَتِي إِلَى الْغابَةِ، حَتَّى أَبْلُغَ بِكِ حَدِيقَةَ الْوَرْدِ، حَيْثُ تَرَيْنَ أَجْمَلَ ما يَحْوِيهِ الْعالَمُ مِنْ وُرُودٍ.»

فَقالَتِ «الشَّقْراءُ»: «وَلَكِنْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْحَدِيقَةِ، و«أَبُو خِداشٍ» لا يُفارِقُنِي أَيْنَما ذَهَبْتُ؟»

فَقالتِ الْبَبَّغاءُ: «مَتَى صَحَّتْ عَزِيمَتُكِ، فَلَنْ تَعْدَمِي وَسِيلَةً لِإبْعادِهِ عَنْكِ. فَإذا أَلَحَّ عَلَيْكِ فِي الْبَقاءِ فازْجُرِيهِ؛ فَإنْ لَمْ يَزْدَجِرْ فاضْرِبِيهِ، ثُمَّ اخْرُجِي بِرَغْمِ أَنْفِهِ، وَسَتَجِدِينَنِي فِي انْتِظارِكِ.»

فَقالتِ «الشَّقْراءُ»: «أَخْشَى أَنْ تَكُونَ الْوَرْدَةُ بَعِيدَةً، فَتَفْطُنَ الْوَعِلَةُ إلَى غِيابِي.» فَقالتِ الْبَبَّغاءُ: «كَلَّا، فَلَيْسَ بَيْنَكِ وَبَيْنَها أَكْثَرُ مِنْ ساعَةٍ واحِدَةٍ. والْآنَ لا أُوصِيكِ بِغَيْرِ الشَّجاعَةِ والثَّباتِ وَصِدْقِ الْعَزِيمَةِ؛ حَتَّى يَتَحَقَّقَ أَمَلُكِ فِي الْخَلاصِ مِنَ الْأَسْرِ.»

(٦) ضَرْبَةٌ جائِرَةٌ

وَلَمَّا جاءَ الْيَوْمُ التَّالِي خَرَجَتِ «الشَّقْراءُ» إلَى الْحَدِيقَةِ وَمَعَها «أَبُو خِداشٍ» بَعْدَ أَنْ تَغَدَّيا. وَحاوَلَتْ أَنْ تُفْلِتَ مِنْ صُحْبَةِ «أَبِي خِداشٍ»؛ فَلَمْ تَجِدْ إلَى ذَلِكَ سَبِيلًا.

فَلَمَّا بَلَغَتِ الْمَمْشَى الَّذِي يُؤَدِّي إلَى بابِ الْحَدِيقَةِ، حاوَلَتْ أَنْ تُبْعِدَهُ عَنْها، فَطَلَبَتْ إلَيْهِ أَنْ يَتْرُكَها وَحْدَها لِتَنْفَرِدَ بِنَفْسِها، فَلَبِثَ فِي مَكانِهِ كَأَنَّهُ لَمْ يَفْهَمْ شَيْئًا. فَلَمَّا اشْتَدَّ بِها الضِّيقُ رَكَلَتْهُ بِرِجْلِها غاضِبَةً حانِقَةً، وَضَرَبَتْهُ ضَرْبَةً عَنِيفَةً. فَصَرَخَ الْمِسْكِينُ مُتَأَوِّهًا، وَعَلَا مُواؤُهُ مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ. ثُمَّ تَرَكَها عائِدًا إلَى الْقَصْرِ، وَهُوَ لا يَكادُ يُصَدِّقُ بِالنَّجاةِ.

وارْتَعَشَتِ الْفَتاةُ حِينَما سَمِعَتْ صَيْحَةَ الْقِطِّ الْمُفَزِّعَةَ، وَوَقَفَتْ فِي مَكانِها مَحْسُورَةً نادِمَةً عَلَى فَعْلَتِها. وَهَمَّتْ أَنْ تَسْتَدْعِيَهُ وَتَعْتَذِرَ إلَيْهِ عَنْ إساءَتِها، وَتَعْدِلَ عَنْ قَطْفِ الْوَرْدَةِ، وَتُطْلِعَ أُمَّهُ عَلَى ما حَدَّثَتْها بِهِ الْبَبَّغاءُ دُونَ أَنْ تُخْفِيَ عَنْها شَيْئًا؛ وَلَكِنَّها خَجِلَتْ مِنْ إساءَتِها إلَى الْقِطِّ، وَدَفَعَها الْخَجَلُ الطَّائِشُ إلَى الْفِرارِ.

وَكانَتْ قَدْ بَلَغَتْ بابَ الْحَدِيقَةِ، فَأَسْرَعَتْ إلَى فَتْحِهِ، وَما فَتَحَتِ الْبابَ حَتَّى أَبْصَرَتْ نَفْسَها فِي الْغابَةِ. وَلَمْ تَلْبَثِ الْبَبَّغاءُ أَنْ أَدْرَكَتْها بَعْدَ قَلِيلٍ، وَظَلَّتْ تُقَوِّي مِنْ عَزْمِ الْفَتاةِ؛ فَمَضَتِ «الشَّقْراءُ» فِي الطَّرِيقِ الَّتِي رَسَمَتْها لَها الْبَبَّغاءُ. وَكانَتِ الْبَبَّغاءُ تَسْبِقُها طائِرَةً أَمامَها مِنْ فَنَنٍ إلَى فَنَنٍ، مُتَنَقِّلَةً مِنْ غُصْنٍ إلَى غُصْنٍ، وَتَشْغَلُها بِالْحَدِيثِ لِتُهَوِّنَ عَلَيْها عَناءَ السَّيْرِ وَمَشَقَّتَهُ.

(٧) بَيْنَ الْأَشْواكِ

وَبَدَتِ الْغابَةُ صَعْبَةَ الْمَسالِكِ، مَمْلُوءَةً بِالْحَسَكِ والشَّوْكِ، وَقَدْ كانَتْ تَحْسَبُها نُزْهَةً جَمِيلَةً هَيِّنَةً. وَرَأَتْ كُلَّ طَرائِقِها وَعْرَةً مَمْلُوءَةً بِالصُّخُورِ والْأَحْجارِ. وَلَمْ تَعُدْ أُذُناها تَسْمَعانِ تَغْرِيدَ الْأَطْيارِ، واخْتَفَى عَنْ عَيْنَيْها جَمالُ الْأَزْهارِ، وَأَحَسَّتْ أَلَمًا شَدِيدًا؛ فَحاوَلَتْ أَنْ تَرْجِعَ مِنْ حَيْثُ جاءَتْ، وَلَكِنَّ الْبَبَّغاءَ ظَلَّتْ تَحُثُها وَتُشَجِّعُها عَلَى السَّيْرِ، قائِلَةً: «عَجِّلِي، عَجِّلِي، يا «شَقْراءُ». وَحَذارِ أَنْ تُفْلِتَ مِنْ يَدَيْكِ هَذِهِ الْفُرْصَةُ النَّادِرَةُ. وَأَسْرِعِي بِانْتِهازِها قَبْلَ أَنْ تَفْطُنَ «أُمُّ عَزَّةَ» إِلَى غِيابِكِ، فَتَتْبَعَكِ وَتَحُولَ بَيْنَكِ وَبَيْنَ الْخَلاصِ.»

وَلَمْ تَلْبَثِ «الشَّقْراءُ» أَنِ اسْتَوْلَى عَلَيْها التَّعَبُ، وَمَزَّقَتِ الْأَشْواكُ ذِراعَيْها وَحِذاءَها. فَحاوَلَتْ أَنْ تَعُودَ مَرَّةً أُخْرَى، وَلَكِنَّ الْبَبَّغاءَ ما زالَتْ بِها تُشَجِّعُها.

وَرَأَتِ «الشَّقْراءُ» حَوْلَ الْمَمَرِّ حَظِيرَةً صَغِيرَةً فَتَحَتِ الْبَبَّغاءُ بابَها، وَكانَتْ أَرْضُها جامِدَةً صَخْرِيَّةً. وَرَأَتْ فِي وَسَطِها شَجَرَةَ وَرْدٍ مُزْهِرَةً، بِها وَرْدَةٌ أَبْهَى ما فِي الْعالَمِ مِنْ وَرْدٍ. فَقالَتْ لَها الْبَبَّغاءُ: «خُذِي الْوَرْدَةَ يا «شَقْراءُ»؛ فَأَنْتِ بِها جَدِيرَةٌ، بَعْدَ ما بَذَلْتِ مِنْ جُهُودٍ جَلِيلَةٍ.»

فَأَمْسَكَتِ «الشَّقْراءُ» بِالْغُصْنِ الَّذِي بِهِ الْوَرْدَةُ، وَقَطَفَتْها بِرَغْمِ ما أَحاطَ بِها مِنَ الْأَشْواكِ الَّتِي أَدْمَتْ يَدَها، وانْغَرَسَتْ فِي أَصابِعِها.

(٨) طالِعُ النَّحْسِ

وَلَمْ تَظْفَرِ «الشَّقْراءُ» بِالْوَرْدَةِ حَتَّى امْتَلَأَ الْجَوُّ بِصَيحاتِ الْفَرَحِ، وَعَلا الضَّجِيجُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ. وَأَفْلَتَتِ الْوَرْدَةُ مِنْ يَدِها فِي الْحالِ، وَقالَتْ لَها ساكِنَتُها بِلِسانٍ فَصِيحٍ: «شُكْرًا لَكِ، يا «شَقْراءُ»، لِما قَدَّمْتِ إِلَيَّ مِنْ مَعْرُوفٍ. لَقَدْ أَطْلَقْتِنِي مِنَ السِّجْنِ الَّذِي حَجَزَتْنِي فِيهِ «أُمُّ عَزَّةَ»، أَمِيرَةُ الْغِزْلانِ. وَهِيَ ساحِرَةٌ قَدِيرَةٌ؛ لَوْ تَعْلَمِينَ. وَقَدِ انْتَصَرَتْ عَلَيَّ بِسِحْرِها، حَتَّى جِئْتِ أَنْتِ فَفَكَكْتِ الطَّلاسِمَ والْأَرْصادَ الَّتِي جَعَلَتْ مِنْ هَذِهِ الْوَرْدَةِ سِجْنًا لِي! وَأَطْلَقْتِ — بِإِطْلاقِي — طالِعَ النَّحْسِ الَّذِي يُلازِمُكِ! وَمَصْدَرَ الشَّقاءِ الَّذِي يُطارِدُكِ. وَقَدْ ظَفِرْتُ بِكِ الْآنَ، وَأَصْبَحْتِ أَسِيرَتِي مُنْذُ الْيَوْمِ.»

وهُنا ضَحِكَتِ الْبَبَّغاءُ، بَعْدَ أَنْ نَجَحَ كَيْدُها، وَأَفْلَحَتْ مُؤَامَرَتُها، وَقالَتْ: «ها. ها. ها. شُكْرًا لَكِ — يا «شَقْراءُ» — عَلَى ما هَيَّأْتِهِ لِي مِنْ وَسِيلَةٍ لِلْخَلاصِ مِنْ سِجْنِي. لَقَدْ عَرَفْتُ كَيْفَ أَخْدَعُكِ بِما نَمَّقْتُهُ لَكِ مِنْ أَلْفاظٍ مَعْسُولَةٍ، واتَخَذْتُ مِنْكِ أَداةً لإِهْلاكِ «أُمِّ عَزَّةَ» وابْنِها: صَدِيقَيْكِ اللَّذَيْنِ أَحْسَنا إِلَيْكِ صُنْعًا.»

وَما هِيَ إلَّا أَنِ اسْتَخْفَتِ الْبَبَّغاءُ والْوَرْدَةُ، وبَقِيَتْ «الشَّقْراءُ» وَحْدَها فِي غابَةٍ كَثِيفَةٍ مُوحِشَةٍ.

الفصل الثامن

(١) خَرائِبُ وَأَطْلالٌ

وَجَزِعَتِ «الشَّقْراءُ» مِنْ سُلُوكِها الْخاطِئِ، الَّذِي جَمَعَ بَيْنَ التَّسَرُّعِ والْإساءَةِ. وَراحَتْ تُسائِلُ نَفْسَها مُتَعَجِّبَةً: «تُرَى ماذا تَعْنِيهِ الْبَبَّغاءُ حِينَ قالَتْ: لَقَدِ اتَّخَذْتُكِ أَداةً لِإهْلاكِ صَدِيقَيْكِ اللَّذَيْنِ أَحْسَنا إِلَيْكِ صُنْعًا؟»

وَحاوَلَتِ «الشَّقْراءُ» أَنْ تَعُودَ إِلَى قَصْرِ أَمِيرَةِ الْغِزْلانِ، فَوَجَدَتِ الطَّرِيقَ شائِكَةً وَعْرَةً، وَقَدْ مَزَّقَتِ الْأَشْواكُ ذِراعَيْها، وَأَدْمَتْ ساقَيْها.

وَما زالَتْ تَضْرِبُ فِي الْغابَةِ، سائِرَةً فِي وَضَحِ النَّهارِ بَيْنَ الْحَشائِشِ والْأَعْشابِ حَتَّى انْتَهَتْ إِلَى قَصْرِ أَمِيرَةِ الْغِزْلانِ بَعْدَ ثَلاثِ ساعاتٍ.

وَلَكِنْ: أَيْنَ الْقَصْرُ؟ وَأَيْنَ حَدِيقَتُهُ؟ أَمَّا الْقَصْرُ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ إِلَّا خَرائِبُ وَأَطْلالٌ، وأَمَّا الْحَدِيقَةُ فَلَمْ يَبْقَ مِنْها إِلَّا أَشْواكٌ وَأَعْقابُ أَشْجارٍ يابِسَةٌ. أَما أَشْجارُها الْباسِقَةُ وَأَزْهارُها النَّضِيرَةُ الْعَطِرَةُ، فَقَدْ زالَتْ وَامَّحَتْ.

(٢) مُفاجَأَةٌ

وَأَرادَتِ «الشَّقْراءُ» أَنْ تَقْتَحِمَ هَذِهِ الْخَرائِبَ والْأَشْواكَ، فَلَمْ تَرَ إِلَّا حَيَوانًا كَبِيرًا يَخْرُجُ لَها مِنْ بَيْنِ كُومَةِ الْأَحْجارِ، ثُمَّ يَقْتَرِب مِنْها قائِلًا: «عَمَّ تَبْحَثِينَ؟ أَعَنْ غِزْلانِ الْغابَةِ وَأَمِيرَتِهِنَّ وَوَلَدِها تُفَتِّشِينَ؟ وَيْحَكِ! أَلَسْتِ أَنْتِ السَّبَبَ فِي هَلاكِهِنَّ. فَماذا تَبْتَغِينَ بَعْدَ ذَلِكَ؟ خَيْرٌ لَكِ أَنْ تَرْجِعِي مِنْ حَيْثُ أَتَيْتِ وَلا تُلَوِّثِي ذِكْراهُنَّ بِالتَّحَدُّثِ عَنْهُنَّ.»

فَصَرَخَتِ «الشَّقْراءُ» مُتَفَجِّعَةً: «آهٍ لَكُما، أَيُّها الصَّدِيقانِ، وَواهٍ عَلَيْكُما، أَيُّها الْمُحْسِنانِ. أَلا سَبِيلَ إِلَى افْتِدائِكُما، والتَّكْفِيرِ عَمَّا أَسْلَفْتُ مِنْ إساءَةٍ إِلَيْكُما؟»

وَهَوَتْ إِلَى الْأَرْضِ مُتَخاذِلَةً جاثِيَةً، نادِمَةً باكِيَةً.

وَلَمَّا أَفاقَتْ مِنْ غَشْيَتِها، أَجالَتِ النَّظَرَ فِيما حَوْلَها، لَعَلَّها تَكْشِفُ مَوْئِلًا تَلُوذُ بِهِ، أَوْ دارًا تَأْوِي إِلَيْها، فَلَمْ تَرَ أَمامَها غَيْرَ أَحْجارٍ مُتَناثِرَةٍ، وَغُصُونٍ شائِكَةٍ مُبَعْثَرَةٍ. فَقالَتْ فِي نَفْسِها: «وَماذَا يُخِيفُنِي إِنْ كانَ يُمَزِّقُنِي سَبُعٌ مِنَ السِّباعِ الْمُفْتَرِسَةِ، أَوْ يَأْكُلُنِي ضارٍ مِنَ الضَّوارِي الْفاتِكَةِ، أَوْ أَهْلِكُ جُوعًا وَعَطَشًا؟ إِنَّ هَذا أَيْسَرُ ما أَسْتَحِقُّ مِنْ جَزاءٍ عَلَى ما جَلَبْتُهُ عَلَى «أُمِّ عَزَّةَ» وَوَلَدِها وَغِزْلانِها مِنَ الْإِساءَةِ والْأَذَى.»

(٣) حَدِيثُ الْغُرابِ

وَلَمْ تَنْتَهِ «الشَّقْراءُ» مِنْ هَذِهِ الْكَلِماتِ حَتَّى سَمِعَتْ صَوْتًا يَقُولُ: «هَوِّنِي عَلَيْكِ أَيَّتُها الْأَمِيرَةُ، وَخَفِّفِي مِنْ جَزَعِكِ؛ فَإِنَّ النَّدَمَ يَمْحُو الْإِساءَةَ، والتَّوْبَةَ تُصْلِحُ الْخَطَأَ، وَتَغْفِرُ الذَّنْبَ الَّذِي لا يُغْتَفَرُ.»

فَرَفَعَتْ رَأْسَها فَلَمْ تَرَ إِلَّا غُرابًا كَبِيرًا يَطِيرُ فَوْقَ رَأْسِها. فَقَالَتْ مُتَلَهِّفَةً: «أَحَقًّا تَقُولُ؟ أَيَسْتَطِيعُ النَّدَمُ اللَّاذِعُ أَنْ يَمْحُوَ إساءَتِي، وَيُعِيدَ الْحَياةَ إِلَى أَمِيرَةِ الْغابَةِ وابْنِها وَغِزْلانِها؟»

فَقالَ لَها الصَّوْتُ: «لا رَيْبَ أَنَّ النَّدَمَ يَمْحُو الذُّنُوبَ مَهْما تَكْبَرْ، فاعْتَصِمِي بِالشَّجاعَةِ، وَلا تَرْكَنِي إِلَى الْيَأْسِ.»

فَذَهَبَتِ «الشَّقْراءُ» إِلَى مَكانٍ قَفْرٍ مِنَ الْغابَةِ، خالِيَةٍ أَشْجارهُ مِنَ الشَّوْكِ.

(٤) حَدِيثُ الضِّفْدِعِ

ثُمَّ جَلَسَتْ إِلَى جِذْعِ شَجَرَةٍ كَبِيرَةٍ، وَظَلَّتْ تَبْكِي بُكاءً مُرًّا؛ فَطَرَقَ سَمْعَها صَوْتٌ آخَرُ يَقُولُ لَها: «تَجَلَّدِي، يا «شَقْراءُ»، وابْعَثِي الْأَمَلَ فِي نَفْسِكِ مِنْ جَدِيدٍ.»



وَنَظَرَتِ «الشَّقْراءُ» فَرَأَتْ أَمامَها ضِفْدِعًا عَلَى مَقْرَبَةٍ مِنْها، فَقالَتْ لَها «الشَّقْراءُ»: «هَلْ تَعْرِفِينَ — بِرَبِّكِ — وَسِيلَةً أَسْلُكُها، بَعْدَ أَنْ أَصْبَحْتُ وَحِيدَةً فِي هَذا الْعالَمِ؟»

فَقالَتْ لَها الضِّفْدِعُ: «الشَّجاعَةَ والْأَمَلْ.»

(٥) حَدِيثُ الْبَقَرَةِ

فَتَنَهَّدَتِ «الشَّقْراءُ» وَنَظَرَتْ فِيما حَوْلَها، لَعَلَّها تَجِدُ فاكِهَةً تَسُدُّ بِها جوعَها، وَتَرْوِي ظَمَأَها، فَلَمْ تَقَعْ عَيْناها عَلَى شَيْءٍ؛ فَعاوَدَها الْحُزْنُ والْبُكاءُ. ثُمَّ سَمِعَتْ صَوْتَ جَلاجِلَ وأَجْراسٍ نَبَّهَتْها مِنْ آلامِها.

وَنَظَرَتْ، فَإِذا بَقَرَةٌ سَمِينَةٌ تَدْنُو مِنْها — عَلَى مَهْلٍ — حَتَّى إذا بَلَغَتْ مَكانَها، وَقَفَتْ أَمامَها، وَحَنَتْ رَأْسَها، ثُمَ أَشارَتْ إِلَى وِعاءٍ مُعَلَّقٍ فِي عُنُقِها.

وَقَدْ تَعَوَّدَتِ «الشَّقْراءُ» أَمْثالَ هَذِهِ النَّجَداتِ الْمُفاجِئَةِ الْمَحْمُودَةِ؛ فَفَهِمَتْ ما تَعْنِيهِ الْبَقَرَةُ، وانْتَزَعَتِ الْوِعاءَ مِنْ عُنُقِها، وَحَلَبَتْ مِلْءَ الوِعاءِ. فَلَمَّا ارْتَوَتْ مِنْ لَبَنِها السَّائِغِ اللَّذِيذِ، أَشارَتِ الْبَقَرَةُ إِلَيْها أَنْ تُعِيدَ الْوِعاءَ إِلَى عُنُقِها. فَأَعادَتْهُ حامِدَةً، ثُمَّ قالَتْ لَها: «شُكْرًا لَكِ — يا «أُمَّ جَوْذَرٍ» — عَلَى مَعْرُوفِكِ، وَرَحْمَةُ اللهِ عَلَى أَمِيرَةِ الْغِزْلانِ وابْنِها. فَما أَشُكُّ فِي أَنَّ هَذا الإِسْعافَ الْكَرِيمَ إِنَّما جاءَنِي عَنْ طَرِيقِهِما. وَلَعَلَّهُما لَمْ يَنْسَيانِي بَعْدَ أَنِ انْتَقَلا إِلَى الْعالَمِ الآخَرِ.»

فَسَمِعَتِ الصَّوْتَ يُرَدِّدُ قَوْلَهُ: «إِنَّ النَّدَمَ يَمْحُو الإِساءَةَ، والتَّوْبَةَ تُصْلِحُ الْخَطَأَ، وَتَغْفِرُ الذَّنْبَ الَّذِي لا يُغْتَفَرُ.»

فَقالَتِ «الشَّقْراءُ»: «لَوْ صَحَّ ما قُلْتَ؛ لَوَجَبَ عَلَيَّ أَنْ أَقْضِيَ طُولَ عُمْرِي مُكَرِّرَةً نَدَمِي، مُسْتَغْفِرَةً لِذَنْبِي.»

وَلَمَّا أَقْبَلَ اللَّيْلُ جَلَسَتِ «الشَّقْراءُ» — بِرَغْمِ حُزْنِها — تُفَكِّرُ كَيْفَ تَنْجُو بِنَفْسِها مِنَ الضَّارِياتِ الْفاتِكَةِ الشَّرِسَةِ، والسِّباعِ الْعادِيَةِ الْمُفْتَرِسَةِ. وَقَدْ خُيِّلَ لَها أَنها تَسْمَعُ عُواءَ الذِّئابِ، وَزَئِيرَ أُسُودِ الغابِ.

(٦) بَيْنَ الْغُصُونِ

وَرَأَتْ — عَلَى قَيْدِ خُطُواتٍ مِنَ الْمَكانِ الَّذِي هَبَطَتْ إِلَيْهِ — مَحَلَّةً تَصْلُحُ أَنْ تُنْشِئَ فِيها خُصًّا تَأْوِي إِلَيْهِ بَيْنَ الْأَشْجارِ. فانْحَنَتْ شَيْئًا (قَلِيلًا) لِتَستَطِيعَ الدُّخُولَ بَيْنَ الْغُصُونِ الْمُلْتَفَّةِ، والْأَفْنانِ الْمُشْتَبِكَةِ، ثُمَّ وَصَلَتْ بَعْضَها بِبَعْضٍ، فَأَلَّفَتْ مِنْها مَنْزِلًا صَغِيرًا. وَقَضَتْ ما بَقِيَ مِنْ يَوْمِها فِي تَهيِئَةِ هَذا الْمَسْكَنِ؛ فَأَحْضَرَتْ قَلِيلًا مِنَ الْأَعْشابِ والْغُصُونِ، فَجَعَلَتْ مِنْها فِراشًا وَمِخَدَّةً وَغِطاءً.

ثُمَ كَسَرَتْ طائِفَةً أُخْرَى مِنَ الْغُصُونِ، وَغَرَسَتْها فِي الْأَرْضِ؛ فَجَعَلَتْ مِنْها بابًا وَحاجِزًا يَحْجُبُ مَدْخَلَ الْخُصِّ. وَيَصُدُّ عَنْهُ غارَةَ الْمُغِيرِينَ. ثُمَّ رَقَدَتْ مَجْهُودَةً مِنَ التَّعَبِ.

وَلَمَّا اسْتَيْقَظَتْ فِي الْيَوْمِ التَّالِي، قَضَتْ نَهارَها أَلِمَةً، حَزِينَةً نادِمَةً، حَتَّى إذا شَعَرَتْ بِالْجُوعِ، سَمِعَتْ جَلاجِلَ الْبَقَرَةِ، وارْتَوَتْ مِنْ لَبَنِها الشَّهِيِّ، كَما ارْتَوَتْ أَمْسِ.

وَجلَسَتِ «الشَّقْراءُ» راجِيَةً أَنْ تَعُودَ إِلَيْها الْبَقَرَةُ كُلَّ يَوْمٍ. وَقَدْ تَحقَّقَ رَجاؤُها، وَلَمْ يُخْطِئْ ظَنُّها، وَلَمْ تَتَخَلَّفْ عَنْها الْبَقَرَةُ يَوْمًا واحِدًا، وَظَلَّتْ مُواظِبَةً عَلَى زِيارَةِ «الشَّقْراءِ» صُبْحًا وَظُهْرًا وَمَساءً؛ لِتُغَذِّيَها بِلَبَنِها الشَّهِيِّ!

وَكانَتِ «الشَّقْراءُ» تُمْضِي وَقْتَها باكِيَةً، تُسائِلُ نَفْسَها: «لَقَدْ جَلَبْتُ بِعِصْيانِي وَعِنادِي كُلَّ هَذِهِ الْمَصائِبِ والنَّكَباتِ، وَلَيْسَ فِي مَقْدُورِي أَنْ أُصْلِحَها أَوْ أُكَفِّرَ عَنْها، بَعْدَ أَنْ فَقَدْتُ أَمِيرَةَ الْغِزْلانِ وابْنَها. وَفَقَدْتُ — بِفَقْدِهِما — كُلَّ أَمَلٍ فِي لِقاءِ أَبِي الَّذِي طالَ شَوْقُهُ إِلَى رُؤْيَةِ بِنْتِهِ التَّاعِسَةِ.»

وَبَذَلَتِ «الشَّقْراءُ» كُلَّ ما فِي وُسْعِها لِتَنْسَى أَحْزانَها وَهُمُومَها، فَراحَتْ تَشْغَلُ نَفْسَها بِتَنْظِيمِ الْخُصِّ — الَّذِي أَنْشَأَتْهُ — وَتَرْتِيبِهِ وَإِعْدادِ أَثاثِهِ وَأَدَواتِهِ؛ مِنَ الْحَشائِشِ والنَّباتِ وَأَوْراقِ الشَّجَرِ. فَرَبَطَتِ الْغُصُونَ بَعْضَها بِبَعْضٍ، وَهَيَّأَتْ مِنْها مَقْعَدًا، وَاتَّخَذَتْ مِنَ الْأَشْواكِ الدَّقِيقَةِ الطَّوِيلَةِ إِبَرًا وَدَبابِيسَ وَمَشابِكَ، وَغَزَلَتْ مِنْ سُوقِ الْكَتَّانِ الدَّقِيقَةِ خُيُوطًا مَتِينَةً، أَصْلَحَتْ بِها ما تَقَطَّعَ مِنْ حِذائِها الَّذِي مَزَّقَتْهُ الْأَشْواكُ.

وَظَلَّتْ عَلَى هَذِهِ الْأَحْوالِ سِتَّةَ أَسابِيعَ كامِلَةً، لَمْ يَنْقُصْ حُزْنُها يَوْمًا، وَلَمْ يَفْتُرْ نَدَمُها ساعَةً.

وَقَدْ أَنْساها الْحُزْنُ والنَّدَمُ ما كانَتْ تُقاسِيهِ فِي عُزْلَتِها مِنَ الْغُرْبَةِ والْوَحْشَةِ والأَلَمِ.

الفصل التاسع

(١) حَدِيثُ السُّلَحْفاةِ

وَجَلَسَتِ «الشَّقْراءُ» عَلَى بابِ الْخُصِّ — ذاتَ يَوْمٍ — مَحْزُونَةً، مُسْتَغْرِقَةً فِي التَّفْكِيرِ فِيما جَلَبَتْهُ مِنَ الْمَصائِبِ عَلَى صَدِيقَيْها؛ فَرَأَت سُلَحْفاةً هائِلَةَ الْجِسْمِ تَقْتَرِبُ مِنْها؛ قائِلَةً بِصَوْتٍ مُتَقَطِّعٍ تُخالِطُهُ بُحَّةٌ: «شَقْراءُ! شَقْراءُ! أَتُرِيدِينَ الْخُرُوجَ مِنَ الْغابَةِ؟ إنْ كُنْتِ صادِقَةَ الْعَزْمِ عَلَى الْخَلاصِ، فَأَنا ضَمِينَةٌ لَكِ بِذَلِكِ؛ عَلَى أَنْ تُعاهِدِينِي عَلَى الطَّاعَةِ وَلا تُخالِفِي لِي نُصْحًا.»

فَقالَتِ «الشَّقْراءُ»: «كانَ الْخُرُوجُ مِنَ الْغابَةِ كُلَّ أُمْنِيَّتِي فِي الْحَياةِ؛ أَمَّا الآنَ فَلا.»

فَقالَتِ السُّلَحْفاةُ: «وَلِماذا غَيَّرْتِ رَأْيَكِ؟»

فَقالَتِ الْفَتاةُ: «لَقَدْ جَلَبْتُ الْمَوْتَ والدَّمارَ عَلَى مَنْ أَحْسَنا إلَيَّ، فَلا عَجَبَ إذا عَزَمْتُ عَلَى أَنْ أَمُوتَ فِي الْغابَةِ مَعَهُما، تَكْفِيرًا عَنْ إساءَتِي إلَيْهِما.»

فَقالَتِ السُّلَحْفاةُ: «أَواثِقَةٌ أَنْتِ مِنْ مَوْتِهِما، يا «شَقْراءُ»؟»

فَقالَتْ: «كَيْفَ أَشُكُّ فِي هَذا وَقَدْ رَأَيْتُ قَصْرَهُما خَرابًا، وَسَمِعْتُ الْبَبَّغاءَ تُحَدِّثُنِي أَنَّهُما ماتا؟ وَما أَظُنُّكِ تُرِيدِينَ بِهَذا السُّؤالِ إلا أَنْ تُهَوِّنِي عَلَيَّ مُصِيبَتِي، وَتُخَفِّفِي مِنْ نَكْبَتِي. وَأَنا واثِقَةٌ أَنَّهُما لَوْ بَقِيا عَلَى قَيْدِ الْحَياةِ إلَى الْيَوْمِ، لَما هانَ عَلَيْهِما أَنْ يَتْرُكانِي مُنْفَرِدَةً وَحِيدَةً، لا ناصِرَ لِي وَلا مُعِينَ. وَإِنَّ النَّدَمَ لَيَكادُ يَفْتَرِسُنِي كُلَّما ذَكَرْتُ أَنَّنِي كُنْتُ السَّبَبَ فِي مَوْتِهِما.»

فَقالَتِ السُّلَحْفاةُ: «مَنْ قالَ لَكِ — يا «شَقْراءُ» — إنَّ فِراقَهُما إيَّاكِ لَمْ يَكُنْ بِرَغْمِهِما؟» لِماذا لا تُقَدِّرِينَ أَنَّهُما لَمْ يَسْتَخْفِيا عَنْكِ إلَّا بِأَمْرِ سُلْطانٍ قاهِرٍ أَكْبَرَ مِنْ سُلْطانِهِما؟ أَلا تَعْلَمِينَ — يا «شَقْراءُ» — أَنَّ النَّدَمَ يَذْهَبُ بِالسَّيئَّاتِ، وَيَمْحُو الْغَلَطاتِ؟»

فَقالَتِ «الشَّقْراءُ»: «كُلُّ أُمْنِيَّتِي أَنْ يَكُونا عَلَى قَيْدِ الْحَياةِ، يا سَيِّدَتِي السُّلَحْفاةَ، فَماذا وَراْءَكِ مِنْ أَخْبارٍ؟»

(٢) وَصِيَّةٌ وَعَهْدٌ

فَقالَتِ السُّلَحْفاةُ: «لَمْ يُؤْذَنْ لِي أَنْ أُفْضِيَ إِلَيْكِ بِشَيْءٍ مِنْ أَخْبارِهِما — أَيَّتُها الْفَتاةُ — وَلَنْ تَظْفَرِي مِنِّي بِذَلِكِ إلَّا إذا ضَمِنْتِ لِي أَمْرَيْنِ: أَوَّلُهُما: أَنْ تَمْكُثِي عَلَى ظَهْرِي سِتَّةَ أَشْهُرٍ كامِلَةً، دُونَ أَنْ تُفَكِّرِي — فِي خِلالِها — فِي النُّزُولِ إلَى الْأَرْضِ. وَالثَّانِي: أَنْ تَحْبِسِي لِسانَكِ عَنِ الْكَلامِ، فَلا تُوَجِّهِي إلَيَّ سُؤالًا — مَهْما تَشْهَدِي مِنَ الْغَرائِبِ — حَتَّى تَنْتَهِيَ رِحْلَتُنا بِسَلامٍ.»

فَقالَتِ «الشَّقْراءُ»: «لَكِ عَلَيَّ عَهْدٌ بِذَلِكِ لا أَنْقُضُهُ.»

فَقالَتِ السُّلَحْفاةُ: «تَنَبَّهِي جَيِّدًا، يا «شَقْراءُ»، إنَّها سِتَّةُ أَشْهُرٍ لا تَنْزِلِينَ عَنْ ظَهْرِي — فِي أَثْنائِها — لَحْظَةً واحِدَةً، وَلا تُوَجِّهِينَ إلَيَّ — فِي خِلالِها — سُؤالًا واحِدًا، وَلا يُؤْذَنُ لَكِ فِي الْكَلامِ إلَّا بَعْدَ أَنْ تَنْتَهِيَ الرِّحْلَةُ.

وَعَلَيْكِ أَنْ تَتَذَكَّرِي أَنَّكِ سَتَبْقَيْنَ طَوالَ هَذِهِ الْأَشْهُرِ السِّتَّةِ تَحْتَ سُلْطانِ الْبَبَّغاءِ الْغادِرَةِ، وَشَقِيقَتِها الْوَرْدَةِ السَّاحِرَةِ، ثُمَّ لَنْ يَكُونَ فِي وُسْعِي أَنْ أُقَدِّمَ لَكِ أَيَّ مُعاوَنَةٍ، بالِغَةً ما بَلَغَتْ مِنَ التَّفاهَةِ والضَّآلَةِ.»

فَقالَتْ لَها: «لَكِ ما تُرِيدِينَ. فَلْنَبْدَأْ رِحْلَتَنا جادَّتَيْنِ، وَلا تُضَيِّعِي لَحْظَةً واحِدَةً، فِي غَيْرِ فائِدَةٍ.»

فَقالَتِ السُّلَحْفاةُ: «إذا صَحَّ عَزْمُكِ، فَلْيَكُنْ ما تُرِيدِينَ. فاصْعَدِي عَلَى ظَهْرِي، وَلا تَخْشَيْ جُوعًا وَلا ظَمَأً وَلا أَرَقًا، وَلا تَرْهَبِي شَيْئًا طُولَ الرِّحْلَةِ، فَلَنْ يُصِيبَكِ فِيها — إنْ شاءَ اللهُ — أَيُّ مَكْرُوهٍ.»

فَصَعِدَتِ «الشَّقْراءُ» عَلَى ظَهْرِ السُّلَحْفاةِ الَّتِي قالَتْ لَها: «أَلْجِمِي فاكِ — إنِ اسْتَطَعْتِ — بِلِجامٍ. حَذارِ، يا «شَقْراءُ»، أَنْ تَنْبِسِي بِحَرْفٍ واحِدٍ، قَبْلَ أَنْ نَبْلُغَ نِهايَةَ الرِّحْلَةِ. وَسَتَعْرِفِينَ انْتِهاءَها مَتَى بَدَأْتُكِ بِالْحَدِيثِ.»

الفصل العاشر

(١) سَفَرٌ شاقٌّ



واسْتَغْرَقَتْ رِحْلَةُ «الشَّقْراءِ» سِتَّةَ أَشْهُرٍ كامِلَةً كَما حَدَّثَتْها السُّلَحْفاةُ، قَضَتْ مِنْها ثَلاثَةَ الْأَشْهُرِ الْأُولَى فِي اجْتِيازِ الْغابَةِ، وَثَلاثَةَ الْأَشْهُرِ الْأُخْرَى خارِجَها؛ حَيْثُ وَجَدَتْ نَفْسَها فِي سَهْلٍ مُجْدِبٍ قاسٍ؛ اجْتازَتْهُ فِي سِتَّةِ أَسابِيعَ.

ثُمَّ انْتَهَتْ إِلَى قَصْرٍ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِقَصْرِ غِزْلانِ الْغابَةِ، فَجَعَلَتْ تُسائِلُ نَفْسَها مُتَعَجِّبَةً: «أَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هَذا قَصْرَ غِزْلانِ الْغابَةِ؟ أَيُمْكِنُ أَلَّا يَكُونَهُ؟»

وَلَكِنَّها اعْتَصَمَتْ بِالسُّكاتِ، وَلَمْ تَجْرُؤْ عَلَى سُؤالِ السُّلَحْفاةِ.

وَدَأَبَتِ السُّلَحْفاةُ فِي سَيْرِها دُونَ أَنْ تُسائِلَها «الشَّقْراءُ» أَوْ تَعْتَرِضَها.

وَكَأَنَّما كانَتِ السُّلَحْفاةُ تَتَباطَأُ فِي سَيْرِها — مُتَعَمِّدَةً — لِتَمْتَحِنَ بِذَلِكَ صَبْرَ «الشَّقْراءِ». فَقَضَتْ — فِي اجْتِيازِ مَسافَةٍ لا تَحْتاجُ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ ساعاتٍ — خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا كامِلاتٍ، مَرَّتْ عَلَى الشَّقْراءِ كَأَنَّها خَمْسَةَ عَشَرَ قَرْنًا.

فَلَمَّا بَلَغَتْ بابَ الْقَصْرِ، لَمْ تَأْذَنْ لِـ«الشَّقْراءِ» أَنْ تَنْزِلَ، بَعْدَ أَنْ وَقَفَتْ عَنِ السَّيْرِ عامِدَةً، دُونَ أَنْ تَتَقَدَّمَ خُطْوَةً واحِدَةً. فَظَلَّتِ الْمِسْكِينَةُ ناظِرَةً إِلَى الْقَصْرِ، شاخِصَةً إِلَى بابِهِ.

(٢) جَزاءُ الصَّبْرِ

فالْتَفَتَتِ السُّلَحْفاةُ إِلَى صاحِبَتِها قائِلَةً: «الآنَ تَنْزِلِينَ يا «شَقْراءُ». والآنَ يُؤْذَنُ لَكِ بِالْكَلامِ، بَعْدَ أَنْ كَسَبْتِ — بِشَجاعَتِكِ وَصَبْرِكِ وَطاعَتِكِ — ما وَعَدْتُكِ بِهِ مَنْ مُكافَأَةٍ جَزِيلَةٍ، وَسَعادَةٍ طَوِيلَةٍ. فادْخُلِي مِنْ هَذا الْبابِ الصَّغِيرِ الَّذِي تَرَيْنَهُ أَمامَكِ، واسْأَلِي أَوَّلَ مَنْ تُقابِلِينَ، لِيُرْشِدَكِ إِلَى مَكانِ سَيِّدَةِ الْعَصْرِ، وَحارِسَةِ الْقَصْرِ، الْجِنِّيَّةِ «أُمِّ نَصْرٍ». وَعِنْدَها تَجِدِينَ ما تُحِبِّينَ، وَتَسْمَعِينَ جَوابَ ما تَسْأَلِينَ، وَتَظْفَرِينَ مِنْها.»

فَقَفَزَتِ «الشَّقْراءُ» إِلَى الْأَرْضِ فَرْحانَةً مُبْتَهِجَةً. وَكانَ أَخْوَفَ ما تَخافُهُ، وَأَخْشَى ما تَخْشاهُ، أَنْ تَكُونَ ساقاها قَدْ عَجَزَتا عَنِ الْسَّيْرِ، بَعْدَ أَنْ تَوَقَّفَتا عَنِ الْحَرَكَةِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ كامِلَةً. وَلَكِنَّها سُرْعانَ ما عاوَدَتْها الطُّمَأْنِينَةُ والثِّقَةُ، حِينَ رَأَتْ أَنَّها أَنْشَطُ لِلسَّيْرِ، وَأَقْدَرُ عَلَى الْحَرَكَةِ، مِمَّا كانَتْ مِنْ قَبْلُ فِي عَهْدِها الْأَوَّلِ.

وَلَمْ تَطْمَئِنَّ إلَى هَذِهِ الْخاتِمَةِ السَّارَّةِ حَتَّى شَكَرَتِ السُّلَحْفاةَ أَصْدَقَ الشُّكْرِ عَلَى ما أَسْدَتْ إلَيْها مِنْ صَنِيعٍ. ثُمَّ أَسْرَعَت إلَى بابِ الْقَصْرِ.

(٣) حارِسَةُ الْقَصْرِ

وَلَمْ تَجْتَزِ الْوَصِيدَ (الْعَتَبَةَ) حَتَّى أَبْصَرَتْ أَمامَها غادَةً جَمِيلَةً تَرْتَدِي ثَوْبًا أَبْيَضَ ناصِعَ الْبَياضِ.

وَلَمْ تُبْصِرِ الْفَتاةُ «الشَّقْراءَ» حَتَّى سَأَلَتْها بِصَوْتٍ عَذْبٍ عَمَّنْ تُرِيدُ.

فَقالَتْ لَها: «أُرِيدُ أَنْ أَرَى سَيِّدَةَ الْعَصْرِ، وَحارِسَةَ الْقَصْرِ، الْجِنِّيَّةَ «أُمَّ نَصْرٍ». فَهَلْ تَتَفَضَّلِينَ بإخْبارِها أَنَّ بِبابِ الْقَصْرِ فَتاةً اسْمُها: «الشَّقْراءُ» تُرِيدُ أَنْ تَسْعَدَ بِلِقائِها؟»

فَقالَتْ لَها الْفَتاةُ: «هَلُمِّي فاتْبَعِينِي، يا أَمِيرَةُ، فَأَنْتِ بِكُلِّ خَيْرٍ جَدِيرَةٌ.»

فَتَبِعَتْها «الشَّقْراءُ» وَهِيَ تَرْتَجِفُ مِنْ شِدَّةِ الشَّوْقِ. وَمَرَّتْ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْقاعاتِ البَدِيعَةِ، وَلَقِيَتْ كَثِيراتٍ مِنَ الْأَوانِسِ الْجَمِيلاتِ، مُرْتَدِياتٍ أَبْدَعَ الثِّيابِ الْفاتِناتِ، حالِياتٍ بِأَثْمَنِ الْيَواقيتِ الْباهِراتِ، وَقَدْ أَقْبَلْنَ عَلَيْها باسِماتٍ.

وَدَهِشَتْ مِنْ حَفاوَتِهِنَّ، وَخُيِّلَ إلَيْها أَنَّها تَعْرِفُهُنَّ مِنْ قَبْلُ كَما يَعْرِفْنَها، وَتَأْلَفُهُنَّ كَما يأْلَفْنَها. ثُمَّ انْتَهَتِ «الشَّقْراءُ» إلَى بَهْوٍ فَسِيحٍ، ما أَشْبَهَهُ بِما رَأَتْهُ فِي قَصْرِ أَمِيرَةِ الْغِزْلانِ، إنْ لَمْ يَكُنْهُ. وَقَدْ أَثَّرَ فِي نَفْسِها ما رَأَتْهُ تَأْثِيرًا شَدِيدًا، واشْتَدَّ بِها الشَّوْقُ، واسْتَبَدَّ بِها الْأَلَمُ، وَطَغَى عَلَيْها الْحُزْنُ، حِينَ اسْتَعادَتْ تِلْكَ الذِّكْرَياتِ الْماضِيَةَ السَّعِيدَةَ. فَنَسِيَتْ كُلَّ ما عَداها، وَلَمْ تَفْطُنْ إلَى انْصِرافِ الآنسَةِ الَّتِي كانَتْ مَعَها، وَذَهابِها لِاسْتِدْعاءِ الْجِنِّيَّةِ «أُمِّ نَصْرٍ».

وَلَمْ تَرَ «الشَّقْراءُ» شَيْئًا جَدِيدًا فِي هَذا الْبَهْوِ يَخْتَلِفُ عَمَّا كانَ فِي الْقَصْرِ الْقَدِيمِ إلَّا صِوانًا كَبِيرًا مِنَ الذَّهَبِ الْخالِصِ، مُرَصَّعًا بِالْعاجِ الْبَدِيعِ الصُّنْعِ، وَكانَ قَدْ أُغْلِقَ بابُهُ. فَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تُحَوِّلَ بَصَرَها عَنْهُ، وَشَعَرَتْ بِانْعِطافٍ إلَيْهِ، وَجاذِبِيَّةٍ وَشَوْقٍ شَدِيدَيْنِ إلَى رُؤْيَةِ ما يَحْوِيهِ.

وَإِنَّها لَغارِقَةٌ فِي التَّأَمُّلِ، مُستَسْلِمَةٌ لِلتَّفْكِيرِ، إِذِ انْفَتَحَ أَحَدُ أَبْوابِ الْقاعَةِ فَجْأَةً، وَدَخَلَتْ مِنْهُ سَيِّدَةٌ شابَّةٌ فِي ثَوْبٍ رائِعٍ. فَلَمَّا اقْتَرَبَتْ مِنَ «الشَّقْراءِ» قالَتْ لَها بِصَوْتٍ لَطِيفٍ عَذْبٍ: «ماذا تُرِيدِينَ مِنِّي، يا بُنَيَّتِي؟»

فَقالَتْ لَها «الشَّقْراءُ» مُتَذَلِّلَةً ضارِعَةً: «لَقَدْ سَمِعْتُ — يا سَيِّدَتِي الْجَلِيلَةَ — أَنَّ لَدَيْكِ الْخَبَرَ الْيَقِينَ عَنْ صَدِيقَيَّ الْعَزِيزَيْنِ: أَمِيرَةِ الْغِزْلانِ وَوَلَدِها «أَبِي خَداشٍ». وَما أَظُنُّكِ إِلَّا عارِفَةً بِما أَسْلَفْتُ مِنْ خَطَإٍ لا يُغْتَفَرُ حِينَ أَهْمَلْتُ طاعَتَهُما، وَأَبَيْتُ إِلَّا أَنْ أُخالِفَهُما، وَأَعْصِيَ أَمْرَهُما. وَقَدْ عُوقِبْتُ عَلَى ذَلِكِ بِفَقْدِهِما، وَحِرْمانِي مَعُونَتَهُما. وَقَدْ طالَ بُكائِي واشْتَدَّ أَلَمِي لِفَقْدِهِما، وَزادَ نَدَمِي عَلَى مُخالَفَتِهِما، وَطالَ شَوْقِي إِلَى لِقائِهِما. وَقَدْ كِدْتُ أَهْلِكُ غَمًّا؛ وأَمُوتُ أَسَفًا وَهَمًّا، لَوْلا أَنَّ السُّلَحْفاةَ قَدْ بَعَثَتِ الْأَمَلَ فِي نَفْسِي مِنْ جَدِيدٍ، وَيَسَّرَتْ لِي سَبِيلَ الرَّجاءِ، فَحَمَلَتْنِي إِلَى هَذا الْقَصْرِ، وأَخْبَرَتْنِي أَنَّ مِفْتاحَ سَعادَتِي فِي يَدَيْكِ. فَبِماذا تُشِيرِينَ عَلَيَّ؟»

(٤) بَعْدَ فَتْحِ الصِّوانِ

فَقالَتِ الْجِنِّيَّةُ «أُمُّ نَصْرٍ» مَحْزُونَةً مُتَأَلِّمَةً: «سَتَعْلَمِينَ، يا «شَقْراءُ» — بَعْدَ قَلِيلٍ — ما آلَ إِلَيْهِ أَمْرُ صَدِيقَيْكِ الْعَزِيزَيْنِ، إذا احْتَفَظْتِ بِما مَيَّزَكِ اللهُ بِهِ مِنْ شَجاعَةٍ وأَمَلٍ، فَحَذارِ أَنْ تَفْقِدِي إِحْدَى هاتَيْنِ الْمِيزَتَيْنِ أَوْ كِلْتَيْهِما، مَهْما تُبْصِرِي مِنْ مُفاجَآتٍ. أَقادِرَةٌ أَنْتِ عَلَى إِنْجازِ هَذَيْنِ الشَّرْطَيْنِ، وَتَحْقِيقِ هَذَيْنِ الْمَطْلَبَيْنِ؟» فَقالَتِ «الشَّقْراءُ» وَهِيَ تَرْتَجِفُ: «لَكِ ما تَشائِينَ.»

فَقالَت لَها الْجِنِّيَّةُ: «هاكِ مِفْتاحَ الصِّوانِ الَّذِي طالَ وُقُوفُكِ أَمامَهُ. فافْتَحِيهِ؛ وَحَذارِ أَنْ تَفْقِدِي شَجاعَتَكِ وأَمَلَكِ.»

فَتَقَدَّمَتِ «الشَّقْراءُ» إِلَى الصِّوانِ، وَفَتَحَتْ بابَهُ بِيَدٍ رَعِشَةٍ.

فَماذا أَبْصَرَتْ؟ وأَيَّ هَوْلٍ نَظَرَتْ؟ وَبِأَيِّ مُفاجَأَةٍ رُوِّعَتْ؟

لَقَدْ ظَهَرَتْ أَمامَها — فِي الْحالِ — أَمِيرَةُ الْغِزْلانِ وَوَلَدُها الْأَمِيرُ «أَبُو خَداشٍ»، وَكِلاهُما مُعَلَّقٌ، مَشْدُودٌ مِنْ شَعْرِهِ فِي أَعْلَى الصِّوانِ، مُثَبَّتَةٌ يَداهُ وَرِجْلاهُ بِمَسامِيرَ مَتِينَةٍ مِنَ الْماسِ.

وَمَا أَبْصَرَتْهُما حَتَّى انْبَعَثَتْ مِنْها صَرْخَةُ أَلَمٍ عالِيَةٌ، كادَ يَتَمَزَّقُ مِنْها قَلْبُها. ثُمَّ أُغْمِيَ عَلَيْها، فَسَقَطَتْ بَيْنَ ذِراعَيِ الْجِنِّيَّةِ «أُمِّ نَصْرٍ» الَّتِي أَكْبَرَتْ وَفاءَها، وأَسْرَعَتْ إِلَى نَجْدَتِها.

ثُمَّ فُتِحَ الْبابُ مَرَّةً أُخْرَى، وَدَخَلَ أَمِيرٌ بَهِيُّ الطَّلْعَةِ، صَبِيحُ الْوَجْهِ، فَأَسْرَعَ إِلَى السَّيِّدَةِ قائِلًا: «شَدَّ ما قَسَوْتِ — يا أُمِّي — عَلَى عَزِيزَتِنا «الشَّقْراءِ» فِي هَذِهَ التَّجْرِبَةِ الْعَنِيفَةِ.»

فَقالَتْ لَهُ مُعْتَذِرَةً: «لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ بِاخْتِيارِي، يا بُنَيَّ — كَما يَعْلَمُ اللهُ — وَإِنْ كانَ قَلْبِي لَيَكادُ يَتَقَطَّرُ دَمًا، مِنْ جَرَّاءِ ما لَقِيَتِ «الشَّقْراءُ» مِنَ الشَّدائِدِ، واحْتَمَلَتْ مِنَ النَّكَباتِ. وَإِنَّكَ لَتَعْرِفُ أَنَّ هَذا الْعِقابَ الْأَخِيرَ لَمْ يَكُنْ لَنا مَنْدُوحةٌ عَنْهُ لِتَخْلِيصِها مِنْ أَسْرِ ساحِرِ الْغابَةِ الْعَنِيدِ.»

وَلَمْ تُتِمَّ السَّيِّدَةُ هَذِهِ الْكَلِماتِ حَتَّى لَمَسَتِ «الشَّقْراءَ» بِيَدِها. فَأَعادَتْ إِلَيْها الْيَقَظَةَ والانْتِباهَ. فَكانَ أَوَّلَ ما فاهَتْ بِهِ قَوْلُها: «كَلَّا. لا خَيْرَ فِي الْحَياةِ بَعْدَ ما رَأَيْتُ، وَلا عَزاءَ لِي بَعْدَ هَذا الْيَوْمِ، إِلَّا إِذا لَحِقْتُ بِهِما، وَهَلَكْتُ فِي أَثَرِهِما.»

فَضَمَّتْها السَّيِّدَةُ بَيْنَ ذِراعَيْها، مُعْجَبَةً بِوَفائِها وإِخْلاصِها وَعِرْفانِها لِلْجَمِيلِ.

(٥) أَيَّامُ السَّعادَةِ

ثُمَّ قالَتْ لَها باسِمَةً: «شَقْراءُ. لا تَجْزَعِي يا شَقْراءُ. إِنَّ صَدِيقَيْكِ لا يَزالانِ عَلَى قَيْدِ الْحَياةِ، وَهُما لا يَعْدِلانِ بِحُبِّكِ شَيْئًا. أَنْعِمِي النَّظَرَ فِي وَجْهِي، فَأَنا «أُمُّ عَزَّةَ»، وَهَذا وَلَدِيَ الْأَمِيرُ «أَبُو خَداشٍ.»

ثُمَّ سَكَتَتْ أَمِيرَةُ الْغِزْلانِ لَحْظَةً قَصِيرَةً، واسْتَأْنَفَتْ حَدِيثَها قائِلَةً: «لَقَدِ انْتَهَزَ ساحِرُ الْغابَةِ فُرْصَةً مُواتِيَةً، فَغافَلَنِي وَسَحَرَنِي وَوَلَدِي وَعِلَةً وَقِطًّا، وَحَوَّلَ جَوارِينَا وَخَدَمَنا جَمِيعًا غِزْلانًا. وَلَمْ يَكُنْ لَنا وَسِيلَةٌ لِاسْتِرْدادِ شَكْلِنا الآدَمِيِّ إِلَّا إِذا قَطَفْتِ الْوَرْدَةَ. وَلَكِنَّ قَطْفَها سَيُكَلِّفُكِ أَهْوالًا، لا قِبَلَ لَكِ بِاحْتِمالِها. وَلَمَّا كُنْتُ عارِفَةً بِما تَتَعَرَّضِينَ لَهُ مِنْ شَقاءٍ إِذا حاوَلْتِ أَنْ تُخْرِجِي ساكِنَةَ الْوَرْدَةِ مِنْ سِجْنِها، لَمْ أَشَأْ أَنْ أُخْبِرَكِ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ حَتَّى لا تُكابِدِي مِنَ الشَّقاءِ ما كابَدْتِهِ. عَلَى أَنَّكِ لَوْ لَمْ تَفْعَلِي ذَلِكِ لَبَقِيتُ أَنا وَوَلَدِي مَسحُورَيْنِ غَزالَةً وَقِطًّا، وَلَمْ نَسْتَرِدَّ صُورَتَنا مَدَى الْحَياةِ. وَلَوْ تُرِكَ لَنا الْأَمْرُ لَآثَرْنا أَنْ نَبْقَى كَما كُنَّا مَسْحُورَيْنِ، لا يُفَكُّ سِحْرُنا أَبَدًا. وَلَكِنْ ما حِيلَتُنا وَقَدْ غافَلَتْنا الْبَبَّغاءُ، وتَمَكَّنَتْ مِنْ

لِقائِكِ والتَّحَدُّثِ إِلَيْكِ؟ وَما أَدْري: كَيْفَ تَيَسَّرَ لَها ذَلِكِ بِرَغْمِ ما أَقَمْناهُ فِي سَبِيلِ تَعْوِيقِها مِنَ الْحَواجِزِ؟ وقَدْ حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكِ ما لا تَجْهَلِينَ مِنَ الْأَحْداثِ والْمَصائِبِ. وما أَظُنُّنِي بِحاجَةٍ إِلَى تِبْيانِ ما لَقِيناهُ مِنَ الحُزْنِ فِي أَثْناءِ تَعَرُّضِكِ لِهَذِهِ الْمِحْنَةِ الَّتِي قاسَيْتِها، أَيَّتُها الْعَزِيزَةُ.»

وَلا تَسَلْ — أَيُّها الْقارِئُ — عَنْ فَرَحِ «الشَّقْراءِ» بِهَذِهِ الْخاتِمَةِ الْسَّارَّةِ، وَكَيْفَ انْهالَتْ عَلَى أَمِيرَةِ الْغِزْلانِ تُعانِقُها وَتُقَبِّلُها وَتَشْكُرُها، وَتُثْنِي عَلَى وَلَدِها الْأَمِيرِ النَّبِيلِ. وَلَمْ يَسْتَقِرَّ بِهِمُ الْمَقامُ حَتَّى سأَلَتِ «الشَّقْراءُ» أَمِيرَةَ الْغِزْلانِ عَمَّا آلَ إِلَيْهِ أَمْرُ غِزْلانِ الْغابَةِ الَّتِي كانَتْ تَقُومُ عَلَى خِدْمَتِها.

فَقالَتْ لَها «أُمُّ عَزَّةَ»: «لَقَدْ رَأَيْتِهِنَّ، يا عَزِيزَتِي الآنَ. إِنَّهُنَّ الْأَوانِسُ اللَّواتِي رافَقْنَكِ إِلَى هَذا الْمَكانِ. حَوَّلَهُنَّ السَّاحِرُ — كَما قُلْتُ لَكِ — غَزالاتٍ. فَلَمَّا انْطَلَقَ الْجِنِّيُّ، زالَ سِحْرُهُ عَنْهُنَّ، فَعُدْنَ — كَما كُنَّ مِنْ قَبْلُ — آنِساتٍ.»

فَقالَتِ «الْشَّقْراءُ»: «وكَيْفَ حالُ «أُمِّ جَوْذَرٍ» تِلْك الْبَقَرَةِ الْكَرِيمَةِ الْخَيِّرَةِ؟»

فَقالَتْ: «لَقَدْ رَجَوْنا مَلِكَةَ الْجِنِّيَّاتِ أَنْ تُرْسِلَها إِلَيْكِ لِتُخَفِّفَ مِنْ قَسْوَةِ التَّجْرِبَةِ عَلَيْكِ. كَما رَجَوْناها أَنْ تُرْسِلَ إِلَيْكِ الْغُرابَ «أَبا حاتِمٍ» لِيَبْعَثَ حَدِيثُهُ فِي نَفْسِكِ الصَّبْرَ والْأَمَلَ.»

فَقالَتِ «الشَّقْراءُ»: فَأَنْتِ — إِذَنْ — الَّتِي أَرْسَلَتْ السُّلَحْفاةَ إِلَيَّ؟»

فَقالَتْ: «نَعَمْ — يا شَقْراءُ — فَقَدِ اشْتَدَّ حُزْنِي لِما تَحَمَّلْتِ مِنْ آلامٍ مُبَرِّحَةٍ. وَقَدْ عاوَنَتْنِي مَلِكَةُ الْجِنِّيَّاتِ عَلَى تَخْلِيصِكِ مِنْ ساحِرِ الْغابَةِ، عَلَى شَرِيطَةِ أَنْ تَسْتَوْثِقَ مِنْ طاعَتِكِ وَصَبْرِكِ وَشَجاعَتِكِ. فَمَشَتْ بِكِ تِلْكَ الْمَرْحَلَةَ الطَّوِيلَةَ الْمُتْعِبَةَ، وَخَيَّلَتْ إِلَيْكِ — فِيما خَيَّلَتْ — أَنَنِي وَوَلَدِي قَدْ أَصْبَحْنا فِي عِدادِ الْأَمْواتِ، لِتَخْتَبِرَ مِقْدارَ وَفائِكِ لَنا، وَمَدَى عِرْفانِكِ لِصَنِيعِنا. وَقَدْ رَجَوْتُها — جُهْدِي — أَنْ تُعْفِيَكِ مِنْ هَذِهِ التَّجْرِبَةِ الْقاسِيَةِ، فَلَمْ تُجِبْ رَجائِي. وَقَدْ حَبَسْنا السَّاحِرَ الآنَ، وَأَنْقَذْنا الْعالَمَ مِنْ شَرِّهِ وأَذاهُ.»

وَلا تَسَلْ عَنْ فَرَحِ «الشَّقْراءِ» بِلِقاءِ «أُمِّ عَزَّةَ» وَوَلَدِها، وابْتِهاجِها بِرؤْيَتِهِما، بَعْدَ أَنْ يَئِسَتْ مِنْ لِقائِهِما. فَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِما تَبُثُّهُما شَجْوَها وَشَوْقَها إِلَيْهِما، وَشُكْرَها إِيَّاهُما.

(٦) اللِّقاءُ بَعْدَ الْيَأْسِ

ثُمَّ مَرَّتْ بِخاطِرِها ذِكْرَى والِدِها الْمَلِكِ «حَبِّ الرُّمانِ».

وَسُرْعانَ ما فَطَنَ الْأَمِيرِ «أَبُو خَداش» إلَى ما حَدَّثَتْ نَفْسَها بِهِ، وَعَرَفَ ما دارَ بِخاطِرِها، فَقالَ لَها: «تَأَهَّبِي — يا عَزِيزَتِيَ «الشَّقْراءَ» — لِلِقاءِ والِدِكِ. فَقَدْ أَبْلَغْتُهُ نَبأَ عَوْدَتِكِ مُنْذُ زَمَنٍ يَسِيرٍ، وَهُوَ الآنَ يَنْتَظِرُكِ بِفارِغِ الصَّبْرِ.»

وَلَمْ يُتِمَّ كَلامَهُ حَتَّى رَكِبَتِ «الشَّقْراءُ» عَرَبَةً مِنَ اللُّؤْلُؤِ والذَّهَبِ، وَإلَى يَمِينِها «أَمِيرَةُ الْغِزْلانِ»، وَعِنْدَ قَدَمَيْها الْأَمِيرُ الْوَفِيُّ «أَبُو خَداشٍ». وَشُدَّتْ إلَى الْعَرَبَةِ بَطَّاتٌ بِيضٌ أَرْبَعٌ، فَطارَتْ بِها فِي مِثْلِ سُرْعَةِ الْبَرْقِ الْخاطِفِ، حَتَّى بَلَغَتْ قَصْرَ الْمَلِكِ بَعْدَ لَحَظاتٍ.

وَكانَ الْمَلِكُ — وَحاشِيَتُهُ مِنْ حَوْلِهِ — يَتَرَقَّبُونَ وُصُولَ «الشَّقْراءِ».

وَما رَأَوُا الْعَرَبَةَ حَتَّى دَوَّتْ أَصْواتُ الفَرَحِ، فَأَصَمَّتِ الآذانَ.

وَقَدْ خُيلَ إلَى الْبَطَّاتِ حِينَ سَمِعْنَ تِلْكَ الصَّيْحاتِ أَنَّهُنَّ أَخْطَأْنَ الطَّرِيقَ، وَلَكِنَّ الْأَمِيرَ أَسْرَعَ إلَى تَنْبِيهِهِنَّ إلَى خَطَئِهِنَّ، فَهَبَطَتِ الْعَرَبَةُ أَمامَ بابِ الْقَصْرِ. وَانْدَفَعَ الْمَلِكُ إلَى بِنْتِهِ فَارْتَمَتْ بَيْنَ ذِراعَيْهِ، وَطالَ عِناقُهُما، وَبَكَى الْحاضِرُونَ جَمِيعًا مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ.

وَلَمَّا سَكَنَ تأَثُّرُ الْمَلِكِ انْحَنَى عَلَى يَدِ الْجِنِّيَّةِ يُقَبِّلُها، شاكِرًا ما بَذَلَتْهُ فِي سَبِيلِ بِنْتِهِ «الشَّقْراءِ» مِنْ عِنايَةٍ وَرِعايَةٍ، قادِرًا لَها مَعُونَتَها وَمُرُوءَتَها فِي الْقِيامِ عَلَى تَرْبِيَتِها وَتَثْقِيفِها وَحِمايَتِها. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى وَلَدِها الْأَمِيرِ الْوَدِيعِ الْكَرِيمِ، شاكِرًا لَهُ أَصْدَقَ الشُّكْرِ. وَأُقِيمَتْ حَفَلاتُ الِابْتِهاجِ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ.

وَلَمَّا اسْتَأْذَنَتْ أَمِيرَةُ الْغِزْلانِ فِي أَنْ تَعُودَ إلَى قَصْرِها، شَعَرَتِ «الشَّقْراءُ» والْأَمِيرُ بِحُزْنٍ شَدِيدٍ، وَبَكَيَا بُكاءً حارًّا مِنْ أَلَمِ الْفِراقِ. فَرَجاها الْمَلِكُ أَنْ تَبْقَى هِيَ وَوَلَدُها مَعًا فِي قَصْرِهِ.

(٧) خاتِمَةُ الْقِصَّةِ

وَلَمْ تَمْضِ أَيَّامٌ قَلِيلَةٌ حَتَّى تَزَوَّجَ الْمَلِكُ أَمِيرَةَ الْغِزْلانِ، وَتَزَوَّجَتِ «الشَّقْراءُ» وَلَدَ الْأَمِيرَةِ.

أَمَّا «السَّمْراءُ» فَقَدْ أَصْبَحَتْ خَلْقًا آخَرَ، وَصارَتْ — بِفَضْلِ ما تَحَلَّى بِهِ زَوْجُها مِنْ حَزْمٍ وَكِياسَةٍ — مِثالًا لِلُّطْفِ والْوَداعَةِ والْأَمانَةِ.

أَمَّا «الشَّقْراءُ» فَقَدْ أَنْساها ما ظَفِرَتْ بِهِ مِنَ السَّعادَةِ كُلَّ ما لَقِيَتْهُ مِنْ تَعَبٍ وَعَناءٍ، فِي أَيَّامِ الْبُؤْسِ والشَّقاءِ.

وَعاشُوا جَمِيعًا فِي هَناءٍ وَسُرُورٍ، تُرَفْرِفُ عَلَيْهِمْ أَعْلامُ السَّعادَةِ، والْهَناءَة والرَّغادَةِ، وَعاشُوا فِي ثَباتٍ وَنَباتٍ، وَخَلَّفُوا الْبَنِينَ والْبَناتِ.

يُجابُ مِمَّا فِي هَذِهِ الْحِكايَةِ عَنِ الْأَسْئِلَةِ الْآتِيَةِ:

الفصل الأول

(س١) ماذا لقيت «الشقراء» من أبيها، بعد وفاة أمها؟

(س٢) من التي اختارها الوزير زوجة للملك؟ وماذا خدعه منها؟

(س٣) لماذا ترك الملك بنته فِي كفالة مرضعتها ومربيتها؟

(س٤) ماذا ورثت «السمراء» عن أمها «سمية»؟

الفصل الثاني

(س١) لماذا سمي «شرهان» بهذا الاسم؟ ولماذا تجنب الناس «غابة الزنبق»؟

(س٢) ماذا اشترطت «سمية» على «شرهان» ليظفر بما يطمع فيه؟

(س٣) لماذا رغبت الفتاة فِي دخول «غابة الزنبق»؟ وبماذا عوقب «شرهان»؟

الفصل الثالث

(س١) ماذا شغل «الشقراء» وهي فِي الغابة؟ وماذا خشيت؟

الفصل الرابع

(س١) ماذا لقيت «الشقراء» حين استيقظت؟ وماذا طلبت من «أبي خداش»؟

(س٢) لماذا اطمأنت الفتاة وهي تتبع «أبا خداش»؟ وأين انتهى بها السير؟

الفصل الخامس

(س١) ماذا دار بين أميرة الغزلان والفتاة؟ ولمن الأمر فِي الغابة؟

الفصل السادس

(س١) كيف أصبحت صورة الفتاة؟ وكم أمضت نائمة؟ وماذا استفادت؟

(س٢) ماذا طلبت «الشقراء»؟ وبم حدثتها المرآة؟ وكيف حلم بها أبوها؟

(س٣) بماذا صورت المرآة مصير «سمية» وابنتها؟ لماذا منعت الفتاة من دخول الغابة؟

الفصل السابع

(س١) ما المدة التي حددتْها أميرة الغزلان لترى الفتاة أباها؟ وبماذا نصحتها؟

(س٢) ماذا دار بين الببغاء والفتاة؟ وكيف صورة حقيقة أميرة الغزلان وابنها؟

(س٣) ما المراد بالطلسم؟ وكيف الظفر به؟ وما الزهرة المنهي عن ذكرها؟

(س٤) ماذا فعلت الفتاة بالقط؟ ولماذا شكرت كل من الوردة والببغاء الفتاة؟

الفصل الثامن

(س١) كيف رأت الفتاة مصير القصر؟ وعلام ندمت؟ وبماذا حدثها الغراب؟

(س٢) بماذا أفادت الضفدع الفتاة؟ وبم ارتوت؟ وكيف أقامت خصًّا للمبيت؟

الفصل التاسع

(س١) ماذا تحدثت السلحفاة عن سطوة الببغاء: الساحر، والوردة: الساحرة؟

(س٢) بماذا شرطت السلحفاة لكي تخبر الفتاة بما تطمح إليه من أخبار؟

الفصل العاشر

(س١) ما غرض السلحفاة من طول المدة التي قضتها على ظهرها؟

(س٢) ما حقيقة أميرة الغزلان وابنها؟ وكيف صنع بهما ساحر الغابة؟